

القسم الأول

أهل الوديان

obeikandi.com

الفصل الأول

مقدمات الرحلة

الأزمة مع اليمن — معدات السفر — خطة العمل — رفاق السفر — عود على بدء

١ — الأزمة مع اليمن

ليس كتابي هذا كتاباً يبيحث في السياسة أو يشرح أسباب النزاع بين الملك ابن سعود والإمام يحيى والحرب والمفاوضات والصالح وما جرى خلال ذلك من أحداث جسام بين الحجاز واليمن ، وإنما هو كتاب رحلة وجغرافيا وتاريخ واجتماع . وقد كان السبب في كتابته الأزمة اليمنية — السعودية التي اشتد أوارها عام ١٣٥٢ وقدح زنادها عام ١٣٥٣ . هذه هي العلاقة بين هذا الكتاب وبين الأزمة اليمنية أحببت أن أوضحها بجلاء في مستهل الكلام .

الملك عبد العزيز والإمام يحيى ، حاكمان عربيان مسلمان ، كلاهما جاهد جهاد الأبطال في سبيل دينه وعروبه ووطنه ، وكلاهما خاض المعارك وتناجز القروم والأبطال ، فاستتب له في النهاية ملك طويل عريض ، والعاقبة للمتقين .

اتصل ملك الملوك العربيين مباشرة واختلطت مصالحهما على حدود واحدة باستيلاء الملك ابن سعود على عسير السراة وامتداد حمايته على عسير تهامة واتصاله بأهل نجران من أيام ، وذلك بعد زوال السيطرة العثمانية عن بلاد العرب عام ١٩١٨ ميلادية .

تطورت علاقات الملوك خلال عشر سنوات انقضت على اتصال حدودها مباشرة تطوراً كان يلحظ في ثناياه وتضاعيفه عوامل خفية ، وأدرك كثيرون من العقلاء أنها ستؤدي حتماً إلى اللجاج في النزاع في الحرب ، وقد تنبه كثيرون إلى نقاط

الضعف في علاقات الملكين وحاولوا إطفاء الوميض السكامن فلم يوفقوا إلى اجنثائه من أصوله .

كانت الشرارة الأولى عقب احتلال الملك ابن سعود للحجاز ، فقد تطرق الوهن والضعف إذ ذاك إلى الإمارة الإدريسية في تهامة ، وتقلصت أطرافها باحتلال الجيوش المتوكلية لآكثرها وفي مقدمتها الحديدية واللحية فيميدى وما صاقبها من جهة الجبال وكادت تصل إلى حيزان ، بل قد وصلت بالفعل إلى سامطة بقرب أبو عريش ، وإذا بالقنبلة السعودية المنذرة بالخطر والحذرة للبانين من الاندفاع وراء أهوائهم تنقض انقضا الصاعقة . وكانت القنبلة على شكل معاودة الحماية السعودية على بلاد الأدارسة في ربيع الأول عام ١٣٤٥ .

وكانت الشرارة الثانية في شعبان عام ١٣٥٠ حينما تقدمت جيوش الإمام يحيى فاحتلت بلادا تابعة للمقاطعة الإدريسية التي تعهد ابن سعود بحمايتها من كل خطر داخلها كان أم خارجيا . دارت المفاوضات بينا الاستعدادات الحربية من الجانبين جارية بكل هممة ونشاط ، وتكلفت المساعي السلمية والله الحمد بالنجاح التام بفضل حكمة الملك ابن سعود ورغبته في السلام والسكون . جاء حكم ابن سعود على نفسه في قضية جبل العرو مثلا من المثل العليا في الشهامة العربية والحكمة والعبقرية ، ف قضى على الفتنة ولسكن دون اجنثا جرثومتها .

وكانت مسألة نجران ثالثة الأثافي للموقد الذي تطايرت منه الشرارة الثالثة التي ألهبت الضرم وأججت النيران ، إذ كان كل من الفريقين يدعى بنجران دون أن يكون محتلا فعلا بقوى أحدهما . لقد أبرق الإمام يحيى للملك ابن سعود مستريبا من اتصال أهل نجران من اليامية بأمرائه في عسير ، فأراد ابن سعود أن يبعد الريبة بشكل مقبول ، فأبرق إليه برقية تأولها الإمام يحيى لمصلحته ، وكأنه قرأ فيها تفصل ابن سعود من نجران واليامية ، فأمر جنده بالتقدم لاحتلاله بينما كان وفد ابن سعود يدخل حدود اليمن من جهة تهامة للمفاوضة في مشروع حلف عربي عظيم .

فشل الوفد في مهمته ، وتم احتلال نجران ، فلجأ أهله إلى ابن سعود يطالبونه بحمايتهم وفاء بعهده الذي قطعه لهم منذ سنين ، ودارت المحاربة بين الممسكين بالبرقيات ، وطال الأخذ والرد ، وحصل تحرش آخر ألم ابن سعود وأثار حفيظته ألا وهو احتلال قسم من جباله في تهامة ، والقبض على رهائن من قبائله على الحدود ، فظهر أن الأمر أكبر من أن يحلّ بالمخبرات البرقية .

قرّر الملك أن يعقد مؤتمر في أبها للنظر في حل الخلاف ، فانتدب الإمام يحيى ابن عمه السيد عبد الله بن أحمد الوزير — أحد كبار القواد والساسة في اليمن — أمير الجيوش المتوكلية في تهامة لرياسة وفده ، ونثر الملك عبد العزيز كنفاته فعهد إلى مؤلف هذا الكتاب برياسة الوفد العربي السعودي .

وكان أن توجهت إلى أبها في ١٤ شوال ١٣٥٢ (٣٠ يناير ١٩٣٤) ، وآليت على نفسي أن تكون رحلتي مزدوجة الفائدة من الناحيتين : السياسية بالعمل على إنجاح المؤتمر ، والأدبية بتدوين مشاهداتي الجغرافية وجمع المعلومات التاريخية والاجتماعية عن أحوال ما أمرّ به من تلك البلاد البكر التي لم يكتب عنها إلا اليسير وإخراج ذلك للناس في سفر . هذه هي قصة ميلاد كتابي ، وتلك هي العلاقة بينه وبين الأزمة اليمنية .

٢ — معدات السفر

يحتاج السفر في بلاد العرب إلى ترتيبات خاصة هي من مقتضيات طبيعة البلاد ، وقد أفادتني رحلتي العديدة ما بين نجد والحجاز والأحساء فوائدا لا أنكرها ، غير أني كنت هذه المرة قاصداً بلاداً غير مطروقة تكاد تكون معلوماتنا عنها كعلاومات صبيان المدارس ، فرأيت أن أستعد للهجول أكثر من استعدادي المعتاد ، لاسيما لاعتزاي تدوين مشاهداتي للأماكن والمسافات والأبعاد والآبار والموارد والقبائل والقرى والأودية ، واستقصاء ما هو مجهول عنها ، ووضع خريطة للطريق يصح أن يرجع إليها .

أما من الوجهة العلمية فقد أحضرت ما أمكننى مداركه من الآلات البسيطة التى يستعين بها الرّواد فى رحلاتهم ، وأعددت كشوفاً وأوراقاً خاصة لتسجيل الأبعاد والانحرافات المغناطيسية ودرجة الحرارة والبارومتر ، كما أعددت مكتبة صغيرة مما طبع من كتب الأقدمين عن بلاد العرب وعدداً من الخرائط الأفرنجية ، وكانت نيتى التوغل فى نجران وهو القسم المجهول حتى الآن فى الجزيرة ، وجعل عودتى إلى مكة المسكرمة عن طريق كتف السراة مستعينا بالإبل والخيل على اجتيازها إلى الطائف ماراً ببلاد بنى شهر وغامد وزهران ، فأكون قد جست خلال الديار التى نجههاها فى الجزيرة وحققت مواضع مشهورة كالحلصة فى بلاد دوس وتباله وجرش وسواها ولكنى حرمت - مع الأسف - من العودة بالطريق التى كنت أقصد ،

فأكتفيت بالمعلومات عن البلاد التى زرتها .
أما أدواتى العلمية فقد كانت مؤلفة من :

- | | |
|-------|---------------------------|
| (١) | بوصلة مضبوطة |
| (٢) | بارومتر |
| (٣) | ميزان حرارة |
| (٤) | شريط مساحة |
| (٥) | جداول وكشوف جغرافية وفنية |
| (٦) | آلات تصوير من قياسين |
- وكان عداد السيارة يقوم بمهمة تسجيل المسافات .

٣ - خطة العمل

كنت أرى أنه مما يمس العزة القومية فى الصميم ألا تقوم - ونحن أبناء البلاد وأهلها - بدرس أحوالها وكتابة جغرافيتها وتاريخها كما يفعل الأفرنج ممن تتاح لهم زيارتها فترة قصيرة فيملئون الدنيا كتابة وخطابة عن مشاهدات كثيراً ما تكون سطحية مدسوسة ، وكنت شديد الحرص على الاستفادة جهد الطاقة من كل أسفارى فأخدم بذلك العلم وأرفع عنّا سبة يوجهها إلينا الأفرنج فى غير تورع ولا قصد ، فوطنت النفس فى رحلتى هذه على اهتبال الفرصة السانحة لى والخروج منها بنتائج علمية باهرة ، فاستشرت أحد أصدقائى من الأفرنج المقيمين فى هذه البلاد

من اعتماد القيام برحلات في البادية ، ورجوته أن يسعني ببعض معوماته ويسيرني
بعض أدواته ، ومع أنه كان لا يزال من أصدقائي فإنه كان شحيحاً بمعلوماته ضئيلاً
بأدواته ، ولحظت منه أنه غير آبه كثيراً للموضوع ، بل بالأحرى لم يكن على ثقة
من أن وظيفيا يستطيع أن يأتي بمثل ما يأتي به الأفرنج ، كأن العلم وقف عليهم .

كل هذه العوامل جعلتني مرهف الأذنين حاد العينين ، منقباً عن الكبيرة
والصغيرة ، محققاً جزئيات الأمور ودقائقها ، سائلاً متعلماً جاهلاً للروايات والأخبار ،
مهتمًا بكل ما تقع العين عليه أو تسمع الأذن به أو تمسه اليد .

واصطحبت صديقاً من المهندسين لكي يفيدني في أخذ قياسات الانحراف
المغناطيسي ورسم خريطة الطريق ، كما اصطحبت من كل منطقة يمتتها دليلاً
خبيراً بها .

كنت أجمع أسماء الأماكن والمواقع والآبار والأشجار والأخبار من الأدلاء
والخبراء المرافقين أو المصادفين في الطريق ، وكانت ظروفى مواتية للبحث بدقة ،
إذ كان على أن أبحث مع وفد اليمن في مقاطعات الحدود ، وهذا لا يمكن إلا بجمع
المعلومات الصحيحة المفصلة الدقيقة عنها وعن سكانها وما فيها ، الأمر الذي أفادني
فائدة كبرى ما كانت تتسنى لغيري في ظروف غير ظروفى . وبالفعل لم يمكسك عنى
أحد معلوماته ، ولم يدخر وسعاً في سبيل إطلاعى على كل ما أريد من أهل الخبرة
والدربة ومن رجال الحكومة وأمرأ القباطل والموظفين وغيرهم ، وكنت أعارض
المعلومات بعضها ببعض فيظهر لى صريحها من هجينها وغشها من سمينها ، ولذلك فأنى
وائق من أن ما أعرضه في هذا الكتاب من المعلومات هو أدق وأصح ما يمكن
الحصول عليه .

أما الأرصاد العالمية فإننا كنا نتخذ عداد السيارة أساساً لقياس المسافات ، وكنا
نعارض عدادى السيارتين ليتبين لنا الفرق بينهما ، وحينما ظهر لنا أن الفرق بين
العدادين جزئى جداً قررنا الاعتماد على أحدهما ، وبناء على ذلك فقد وجهنا اهتمامنا

إلى تسجيل قراءات الانحراف المغناطيسي في البوصلة في مسافات معينة ، وكانت القراءات في الأماكن الفسيحة السهلة أقل منها في الأماكن المنعرجة أو السكتيرة المنحنيات . لقد أخذنا مثلاً ٤٩ رصداً من بئر القرشية في أطراف ركبة إلى جهة الطائف إلى آبار بريم في طرف حَضْن الشمالى ، والمسافة بين الموضمين ٩١ كيلومتراً ، وأخذنا ٤٨ رصداً للانحراف من بريم إلى الخزعة في مسافة تبلغ ٦١ كيلومتراً .
وأما الاتجاهات التي كنا نرصدها فقد كانت دائماً اتجاهات طريقنا ، وكنا نعتمد على مشاهدة شجرة أو قلعة لتسجيل الرصد عليها ، غير أننا وجدنا أن عملنا يكون أضعف وأدق لو تقدمتنا السيارة الكبيرة لتتخذها هدفاً للرصد .

وكانت الأرصاد في بعض الأحيان كثيرة عند المنحنيات ، كما كنا نأخذ أرصاداً متعددة من نقطة واحدة إلى اتجاهات مختلفة عن اتجاه طريقنا . ففي نقطة واحدة في القرشية أخذنا خمسة أرصاد في اتجاهات مختلفة ، وفي مواضع أخرى كانت الأرصاد تبلغ ثلاثة أو أربعة أو خمسة حسب الظروف ، وجل قصدنا من هذا الدقة في تسجيل الصفات البارزة على الطريق وأطرافه ؛ علنا نتمكن من رسم خريطة مضبوطة يصح الاعتماد عليها ، وكنا نسجل إلى جانب دفتر الأرصاد شروحاً عن ظاهرات الأرض وطبقتها والشجر والمياه والأودية والقرى ، وعلى الإجمال كل التفاصيل التي يجب الوقوف عليها .

وكنا نسجل درجة الحرارة ثلاث مرات في اليوم ، صباحاً وظهيرة ومساءً .
وأما (البارومتر) فكنا نسجله كلما تراءى لنا أننا في صعود وارتفاع ، وكنا نسجل القراءات بالإنش وأقسامه وبالقدم أيضاً ، لأننا نعلم أن استحصال الارتفاع بتعديل قراءات (البارومتر) على درجة الحرارة أدق من قراءة الارتفاع بالأقدام .

٤ — رفاق السفر^(١)

أكثر ما ينطبق المثل القائل « الرفيق قبل الطريق » على السائح في بلاد العرب ،

(١) من المعلوم أن رفاق السفر غير رفاق المؤتمر . اشترك معي في المؤتمر الشيخ هبسد الله ابن زاحم قاضى معسكر الأمير سعود ، والشيخ عبد الوهاب أبو ملحمة مدير مالية عسير والشيخ دليم ابن محمد أبو لمة أمير قحطان عسير ، والشيخ تركي بن ماضى أمير غامد وزهران .

في البادية ، في الجاهل والمفاوز ، وقد كنت كذلك ، ولو كنت سائحاً في غير الجزيرة لما اهتمت بالبحث عن الرفيق قبل الطريق .

كننا نجعل ما تأتينا به الأقدار بعد وصولنا إلى (أبها) واقترابنا من منطقة الخطر ، ولذلك اخترت رفاقي ممن يعتمد عليهم وقت الشدة ، فكان في مقدمتهم المهندس محمد كنعان خريج الجامعة التركية في إستانبول ، وهو من شباب العرب الذين اشتركوا في أكثر الحركات العربية ، وقد كان وجوده معنا مساعداً على أخذ القياسات وتسجيل الأرصاد ودراسة حال الطريق ، فضلاً عن أنه كان مصدر أسس وتبسط بسبب بعض الصفات البوهيمية فيه . أذكر ويذكر رفاقي بكل اغتباط وقائع مسلية كان بطلها وفارسها كنعان . لقد افتتح الرحلة بنسكنة ظلمت وقتاً طويلاً باعثاً على الضحك والانبساط . حين ركوبنا من مكة المكرمة كان نصيب كنعان في سيارتي الخاصة ، فوجد فيها بنادقنا ومسدساتنا وبنادقية الصيد وقرطيس الخرطوش ، فانتقد وجودها فيها ، واقترح نقلها إلى مكان متسع في السيارة التي تبعتها ، مع كوننا مسافرين إلى ساحة الحرب وقد نضطر إلى الاشتراك في المعارك . ولا نسل أيها القارئ العزيز عن ابتهاجنا بهذا الاقتراح ولمزنا لكنعان بسببه . وكان أن وصلنا إلى مكان يقرب السيل الصغير على طريق الطائف ، فنغد بنزين سيارتنا ، ومكثنا ساعتين في انتظار السيارة الكبيرة لنملأ خزان سيارتنا مما تحمله من وقود ، وهناك قلنا لكنعان : وما رأيك لو كنا في البر وصادفنا صيداً ، أو وحشاً كاسراً ، أو عدواً ، ألا يحسن بنا أن نرجوه الصبر والتأني حتى نأخذ سلاحنا من السيارة الكبيرة ونستعد لمقاومته حسب اقتراحك ؟! . هذه النسكنة وكثير غيرها يدل على روح كنعان الخفيفة وطبيعته الساذجة البريئة .

والشخصية الثانية في الرفاق بعد كنعان : سكرتيري الخاص محمد شيخو ، وهو أليف الأسفار ورفيق المسافر ، صحبني في كل أسفاري في البدو والحضر ، وأصبحت له ملكة في إعداد معدات السفر وإدارة الرفاق .

وهناك تابعان خصوصيان خدمتي الشخصية ، وهما مكلفان بكل ما يتعلق بشخصي فقط .

وهناك « القهوجي » ، وهو زميل الرفاق وسيرهم ، تجمهمهم أكوابه وأباريقه ، وعنده الحلقة الكبرى ساعات الحل وأوقات الاستقرار .

وهناك أيضا شخصية عميد الحملة الذي هو بمثابة رئيس الأتباع ، ووظيفته الإشراف على الخيام والمياه والخطب ، وإصدار التعليمات إلى رفاقه بالاستعداد للسفر ، أو بالتوقف عنه ، أو بنصب الخيام ، وهو همزة الوصل بين السيارة الصغرى وبين ما يتبعها من سيارات الرفاق .

أما الطاهي ومعاونه وأدواته فإنه لا يقرب « بالقهوجي » إلا إذا صفتت المعد من الجوع وألحّت في طلب الطعام ، عندئذ يهرع الكل إلى قدره ، هذا ينفخ في النار وذلك يوقد الخطب ، وغيره يذبح الذبيحة ويسلخها ، وآخر يجلب الماء ، والكل في تلك الساعة أتباع للطاهي . أما إذا امتلأت البطون وعانت الأنفس الطامام ، ترفع الرفاق عن الطاهي ، وعاد هو إلى وحدته لا يؤنسه فيها إلا معاونه .

أما السائقون ومعاونوهم فإنهم يتعبون في السفر ليستريحوا وقت الإقامة ، إذ ما يكاد يصل السائق بسيارته إلى المقيم أو المعشّي أو المضحّي ، وما يكاد يترك عجلة القيادة حتى ينبطح على الأرض في ظل سيارته أو في ظل شجرة .

والشخصية الفذة في السفر هي شخصية الدليل أو الخبير ، وهو في الغالب بدويّ من أهل الديار التي نجتازها ، ويختار عادة من البادية ، لأنه أوسع خطى ، وأبعد مدى ، وأعلى كعباً من الحضريّ الذي تنحصر معلوماته في الحواضر وما جاورها . وقد استخدمنا أدلاءً كثيرين ، فكان فيهم الخفيف الروح والثقل الظل والماهر ببيع معلوماته والمبالغ في الوصف والمقل المقتّر .

٥ — عود علي بدء

لم تتح لي الظروف الفرصة التي أردت ، فقد اصطدمت بمفاوضاتها بمهمة كوثود لم يمكن تذييلها ، وانقطعت المفاوضات بين الوفدين في (أبها) ، فانتقلت إلى يد الملكين من جديد ، ومكثنا في (أبها) مدة لم نضعها عبثاً ، فقد جُسْنَا خلال بلاد عسير وما جاورها من بلاد شهران ؛ وتفقنا العقبات الثلاث المشهورة ، وأرسلنا المهندس للكشف عن أسهلها وأقربها تناولاً ، لشق طريق منها إلى تهامة لعبور السيارات ، واجتمعنا بأعيان البلاد — وقد جمعهم دعوة الحرب — في مخيم سمو الأمير سعود ولي العهد في بلاد شهران ، واتصلنا بأشخاص ما كان الزمن يسمح بالوصول إليهم ، فضلاً عن الاتصال بهم ، لولا حالة الحرب وضرورتها ووجوب الوقوف على كل شاردة وواردة مما يتعلق ببلادهم ، فجمعنا معلوماتنا ورتبناها وبوّبناها على قدر الإمكان ، وعارضنا الأقوال والروايات ، إلى أن قمعت بآني لم أترك أمراً هاماً ما قيدته ، ولا خبراً من أخبار القوم ما دونته ، فإن كنت فشلت في إكمال رحلتي على النحو الذي رسمته لها ، فقد وقفت في جعل القسم الذي قتت به من الرحلة ناجحاً موفقاً .

الفصل الثاني

ركبة

السمر في القمر - عكاظ - آبار القرشية - سهل ركة

١ - السمر في القمر

غادرنا الطائف عصر يوم الثلاثاء الواقع في ١٥ شوال سنة ١٣٥٣ (٣١ يناير سنة ١٩٣٤) وكُنَّا في ركب سمو الأمير فيصل ، فأرادنا على أن نسمر في أحد الأودية في أرض الجَدْيَرَة ، على بعد نحو ثلاثين كيلومتراً من الطائف ، وناهيك بالسمر في الخلاء تحت أديم السماء الصافية الزاهية ، والقمر بدر ينير الأرجاء ، فتنمكس أحسن صور الليل القمر ، وترسم أجمل المناظر في الصحراء المرتفعة . ومجلس الأمير فيصل جزل بالنكتة عاصر بالمحاورات الأدبية النثرية والشعرية العامية ، ويتخلله نوع من إنشاد الأشعار يسمى بالردح ، وطريقة الردح أن ينقسم المجتمعون والشعراء فريقين فيلقى أحدهم موضوعاً للإشاد فيه ، وعلى شعراء كل فريق أن يردوا بيت شعري ، ولا يجوز التكرار لافي المعنى ولا في القافية . وكل يحاول بث روح الحماس في شعرانه ، فترى هؤلاء يتسابقون إلى إلقاء البيت المنشد على البديهة ، ويظل رفاق الشاعر يرددون البيت حتى يفتح الله على شاعر في الفريق الآخر للرد عليه ، وهكذا دواليك .

عاشرت الأمير فيصل في بلاد التقاليد والتمدن ، وفي الحفلات والولائم الأوربية ، وعاشرته في الحجاز وفي نجد ، كما عاشرته في بعض نزواته الخلوية ، وإذا به أمير المجالس أينما كان ، متمدن في بلاد التمدن ، بدوي بين البداوة ، فارس مغوار بين الفرسان متى أطلقت للخيل أعتنها . ففي هذه الليلة أرسل الأمير نفسه على سجيئتها محاكياً بذلك البداوة الساذجة فتتمثل أميراً أعرايياً ؛ يشارك قومه ما هم فيه ،

فيشترك معهم في إيقاد النار وشواء لحم الضأن على طريقة البدو ، وياً كل الشواء
الناضج على الرماد الحار أو المطبوخ في جلد مدفون بالرماد .
من أراد نشاط البرّ، وطلاوة العيش الحرّ في الخلاء والقفور ، فعليه بمجلس الأمير
فيصل ، ففيه الغذاءان العقلي والجسماني ، ولكن أين نحن الآن مما نحن مقبلون
عليه ؟ ودّعنا الأمير في آخر السهرة ، وسرت بنا سياراتنا تنساب في ضوء القمر .
وكانت الليلة عامرة ، وكان الهواء عليلاً ، وكل ما في الليل من رفق وهدوء وعذوبة
يبعث على الاعتباط ، فوصلنا حوالي منتصف الليل إلى آبار القرشية في طرف ركبة
من جهة الطائف ، حيث اعتزمنا تمضية ما بقى من الليل ، لكي نتتمكن من القيام بواجبنا
العلمي الذي أخذناه على عاتقنا في وضح النهار

٢ — عكاظ

قد يخال القارئ أني أقصد تسمية مجلس الأمير فيصل عكاظاً ، والواقع أني
أقصد عكاظاً آخر ، أقصد عكاظاً الصحيح الذي لا يوجد من يعرف العربية دون
أن يكون قد سمع بعكاظ وسوقه .
وليس هذا الكتاب موضوع بحث عن عكاظ ، فلذلك مقام آخر^(١) ، غير أني
— في مطلع رحلتي — عرفت عنه أمراً مضى على وقت غير قصير لم أوفق إليه
كنت أبحث عن عكاظ وموقعه ، وأجمع المعلومات وأتفقد المواقع التي ورد ذكرها
في أخباره ، وكنت أعلم أن موقع السوق مختلف فيه ، وأنه بجوار « نخلة » بينها وبين
الطائف ، أو عند ذات عرق بينها وبين قرن المنازل ، وأنه جرت بقربه حرب
النجار أيام الحريرة والأتيداء وشرب ، وأن في أطرافه العبيلاء والفتق وغيرها
من المواضع ، وبرغم كل محاولاتي لم أستطع تعيين أكثر هذه الأماكن على وجه
التحقيق ، ولكنني اكتشفت خبر شرب ليلة سمري في مجلس الأمير فيصل ،
وإليك البيان :

(١) وضع المؤلف رسالة عن « عكاظ » وتحقيق موضعه لم تطبع للآن .

بين الطائف وذات عرق جبال وهضاب وسهوب تقسم المياه إلى خطين مائلين ، فالخط المائل الغربي تجتمع مياهه في أودية السيل الصغير ووادي المحرم (قرن المنازل) والكفو والسيل الكبير ، وأما الخط المائل الشرقي فإنه يصنّف مياه السفوح والهضاب الشرقية .

تعرف الأرض المستوية الممتدة من جوار بلدة أم الحمض إلى الرّوبة بأرض الجديرة ، وتجتمع المشارب ومجاري السيول في الجديرة في واد كبير هو وادي شرب الوارد ذكره في قصّة الفجار وعكاظ . ويمتد وادي شرب من الرّوبة إلى قرب الأخيضر ماراً بالضلع الصالح والمقرب والمبعوث ومجتازاً ضلع اتلخاض وضلع الككّية إلى القرشيّة ، ثم تغور مياهه في سهل ركبة في مكان اسمه الخاش .

وركبة تتلخ كثيراً من مياه الأودية القادمة من جهة الطائف ، فهناك غير وادي شرب الذي يعدّ من أعظم أودية هذه الجهة والذي تصب فيه المياه المتجمعة في سبيل التّيمّ وأم الحمض والرّوبة والجديرة ، هنالك وادي العرج ووادي ليّة وغيرها .

أفادني هذا الاكتشاف فائدة عظيمة في إقناعي بمكان عكاظ الصحيح ، وكنت من قبل قد لمست أطراف الحقيقة في أبحاثي وتعمّراتي عن موقعه ، وشرعت في تكوين فكرة سليمة له ، فجاء خبر شرب قاطعاً جازماً بصحة الفكرة وقاضياً على كل شك فيها .

كنت أذهب قبل اكتشافي الخالي إلى أن السّهَبَ الواقع بقرب جبل القانيس بين السيل وذات عرق هو المكان الذي يحتمل انطباقه على عكاظ أكثر من غيره . وكانت الروايات مترادفة بأن مكان عكاظ هو المحل المعروف باسم القهاوي عند أعلى مجرى السيل الصغير على بعد ٣٥ كيلو متراً من الطائف .

وكنت أقرأ في كتب الأدب والجغرافيا عن تعريفات عكاظ المختلفة ، ما يفيد أنه سوق بصحراء عندها صخرات ملساء وبجوارها الفتق وهو لبني نصر والعبيلاء ،

والآن تعرف باسم الصيلاء ، وكل هذه الأوصاف تنساق بكل صراحة للدلالة على المكان الواقع في طرف ركبة الجفوبى — الشرقى بين أودية شرب والأخضر والقرج وبين جبل المبعوث والخلص ، ليس ببعيد عن بلدة الأخضر ، فجاء اكتشاف الحديث مؤيداً لصحة ما ذهبت إليه . وإنى لأرجو أن تتيح لى الظروف فرصة لاجراج رسالتى عن عكاظ علماً تكون أساساً محدداً لموقع سوقه يبنى عليه فى المستقبل .

٣ — فى آبار القرشية

تبعد القرشية عن الطائف ٥٥ كيلو متراً . وهى آبار فى مجرى شعيب شرب قبل أن يغيب فى ركبة عند الخاش ، تقع إلى الجنوب الغربى من ركبة ، وتقع عشيرة إلى شمالها ، والمسافة بينهما قصيرة ، والمتجه من مكة المكرمة إلى الحزمة لا يبطأ آبار القرشية بل يمر على عشيرة ومنها إلى ركبة فبريم رأساً ، وأما المسافر من الطائف إلى الحزمة فلا بد له — قبل الدخول فى ركبة — من التزود بالماء من القرشية ، إذ لا يصادف بئراً أخرى قبل بريم على بعد ٩١ كيلو متراً منها .

كانت درجة الحرارة حينما وصلنا القرشية ليلاً ٢٠ عشرين ، فلما أفتقنا عند الفجر هبطت إلى عشر .

مشينا من القرشية حوالى الساعة الثامنة صباحاً ، وأركبنا معنا الدليل الشيبانى ليدلى إلينا بمعلوماته عن ركبة ، وهى ديرة لعتيبة كما هو معلوم ، وقسنا الاتجاهات المختلفة من القرشية لتعيين موقعها بالدقة فإذا هى واقعة فى مكان مشرف على عدة جبال بارزة فى أطراف ركبة هى :

١ — وقير . ٢ — الوقيرات . ٣ — الخالص . ٤ — الككبية ، ثم أمامنا سهل ركبة المنبسط .

كان الشيبانى خفيف الروح دقيق الملاحظة ، رفع عقبرته — عقب تحرك السيارة — منشداً أغنية بدوية فى مدح السيارة ومقارنتها بالذلول والفرق بين سرعة الاثنتين :

ركبت في موتر^(١) يوضي^(٢) باماعه يعوضني عن النضي^(٣) ساسات الاقران
ممشاة عيس النضي يومين له ساعة وإذا برآكبه يخبر بالهربان
راكبه اللي^(٤) مايفديه^(٥) الدليله غير من رأس العمود القيصبان^(٦)
البدوي كالبعير قد يكون أليماً وقد يكون شروداً ، وقد يكون ظريفاً حاضر
البدية خفيف الظل أو يكون كسائر البدو جفاة عراة حفاة . ويشترك البدو في
غريزة الخوف من القوى والحذر من المجهول ، والطمع الشديد ، وكثرة السؤال
والاستيضاح دون أن يمكن البدوي مخاطبه من أخذ أخباره وكشف أسراره ، وقد
اجتمعت في صاحبنا أوصاف البدو العامة ، ولكنه كان من القسم المقبول المستساغ .
أما من حيث المعلومات عن أحوال ديرته فكان سيويوه عصره ، وأصحى
مصره ، عرف بقاع الأرض رقمة رقمة ، وخبرها من طفولته شبراً شبراً ، وجاس
مفاوزها ، وسبر غورها ومجاهلها ، ورأى ليلها ونهارها ، وجرب صيفها وشتاءها ،
وعرف الشجر والعشب والنبات ، وعرف على الإجمال كل ماله اتصال بحياته اليومية منها
سألته عن أمر ما استطعت حلّه منذ سنوات ، فحلّ لي الإشكال بكلمتين ،
وكشف المغطى بدون أقل عناء . كنت أحلط بين شجر السّم والسّم والطلّح ،
وكلّها من فصيلة « الأ كاسيا » البرية ، وتتشابه جذوعها وسوقها وأغصانها وأوراقها
وأزهارها تشابهاً عجيباً ، فلما سألته عن الفوارق بينها أجاب على البديهية : « تفرّق
بشوكها ، فشوك السّم دقيق وشوك السّم أ كبر قليلاً وشوك الطّلع أ كبرها » .
بوركت أيها الشيباني ، وزادك الله علماً ياراعى الجميلة ، لقد حلت لي معضلة عاجلتها
كثيراً وفشلت في معرفة كنهها ، فكنت في نظري سيد العارفين وإمام النباتيين .

٤ - سهل رُكبة

رُكبة ، اسم يطلق على سهل فسيح من الأرض المنبسطة يبلغ طوله زهاء مائة

(١) سيارة (٢) يضيء (٣) النول : السهولة القيادة (٤) الذي (٥) يكفيه
(٦) عمود القيادة في السيارة

كيلومتر وعرضه أقل من ذلك بقليل ، وهي محصورة بين هضاب ومرتفعات جبال الحجاز عند المبعوث والوَقِيرَات من الجنوب ، وَحَصْن وما اتصل به من الجبال المتجهة من الجنوب إلى الشمال من جهة المشرق ، والحرّة المسماة بحرّة البس من جهة الغرب ، وأما من جهة الشمال فإنها تنتهي عند الهضاب الواقعة بين بُرَيْم والحِلمة والمُويّه ودحروج وسَيْسَد والأشْفِيان وجبال المويّه .

وركة من أهم المراعى لقبيلة عتيبة ، ويكثر فيها العشب والشجر ، وأهم شجرها السّمره وفيها أيضاً الطّح والوهط والسّرح ، غير أن الأول أعماها وأكثرها . وأما أعشابها فالعراد والخصاب والعجّلة والنّصي والثمام والهلتة والقطف . وشاهدنا قليلا من نبات الحنظل والسنا والعشرق .

ويكثر الظبي الأشهب في ركة ، ولكنه شرع في هجرها منذ إدخال طريقة صيده بالسيارات . وقد كان من قبل يفر من الجبال إلى السهل ، فانعكست الآية الآن وأصبح فراره من السهل إلى الجبل حذراً من السيارات . ومع أن ما صيد منه خلال السنوات الأخيرة يبلغ الآلاف فما زالت قطعانه كثيرة جداً .

ومياه ركة قليلة ، وليس فيها بئر واحدة برغم خصب أرضها وإحاطة الجبال المرتفعة بمنطقتها ، والآبار توجد في أطرافها من سائر الجهات ، وأهم هذه الآبار
١ — عشيرة ، ٢ — القرشية ، ٣ — سامودة ، ٤ — بريم ، ٥ — صلبّة ،
٦ — حراضة ، ٧ — البديعة .

ومع أن الجبال محيطة بركة من سائر جنباتها كما مرّ بك ، فإن من توسطها لا يشاهد إلا أفقاً مترامياً لا يعلوه أثر مرتفع كالسائر في اليم لا يرى إلا السماء والماء ، ولذلك فإنها مخيفة ومخشى من التيه فيها ما لم يكن الإنسان عارفاً بمدخلها ومخارجها . ذكرنا أن جبل حَصْن^(١) يقع إلى الشرق من ركة ويجدها من الفيافي الشرقية الواقعة إلى جهات عرق سبيع ووادي الدواسر ، ولكن هناك سلسلة من الهضاب

(١) يروى في الحديث : (من رأى حَصْناً فقد أجد) .

القليلة الارتفاع تقع بين ركبة وحضن ، وتعرف باسم البرقان نظراً لبياضها واختلاف لونها عن لون حضن الأسود .

وقد سمي لنا الدليل عدداً غير قليل من الأبارق والجبال ذوات الأشكال المعجبية المخروطية أو الهرمية أو المسنمة . وتنتهي ركبة من جهة الشمال على طريق الذهاب إلى بريم عند أبرق النوار على بعد ٦٢ كيلومتراً من القرشية . وأما الجبال التي يمر بها المسافر بعد أبرق النوار فهي دحروج الأيمن ثم النميلاء ثم دحروج الأيسر لوقوعه عن يسار الطريق ثم عدامان وعدامة ثم سيسد ويدخل بعد ذلك في منطقة حضن وما جاورها ، وهو ما سنصفه في موضع آخر .

حينما مشينا من القرشية كانت الأرض أرض العراد والسمر ، وبعد مسير ٣٦ كيلومتراً قل العراد والسمر وكثر الخطاب والعجالة ، وبعد خمسة كيلومترات أخرى عاد السمر والعراد يخالطه شجر الوهط ، وكلما توجهنا شمالاً بشرق ظهرت لنا قمم جبل حضن السوداء مستعرضاً من الجنوب إلى الشمال ، وبينها وبين ركبة البرقان . فإذا سارت السيارة ستة كيلومترات بعد أبرق النوار أي ٦٨ كيلومتراً من القرشية بدأت أرض كأنها جبال من الحصباء السوداء بينها خيب ، ويكون هنا بدء الانحدار قليلاً . ثم تصادف صخوراً ابتدائية تشبه الصخور الرسوبية ، ثم حصباء مرة أخرى لمسافة بضعة كيلومترات حتى ندخل بين الجبال حيث يكون دحروج الأيسر على بعد حوالي ٣٠٠ متر عن الطريق . وتمر الطريق في نقطة بين جبل البرما الذي هو منتهى جبل حضن من الشمال وبين جبل البتيلة . وبعد مسيرة خمسة كيلومترات تصبح الطريق محصورة بين الجبال التي ذكرناها من قبل وهي النميلاء على اليمين وعدامة على اليسار وسيسد إلى وراء ؛ وبعد مسيرة بضعة كيلومترات أخرى في أرض مشحولة من رخوة إلى حصباء إلى حرة إلى رملية ، تتغير استقامة الطريق من الاتجاه الشمالي الشرقي إلى الشرق تماماً ، ثم تميل إلى الجنوب الشرقي بعد أن تدور حول خشم جبل البرما فتصل إلى آبار بريم الثلاث .

الفصل الثالث

ديار البقوم وسبيع

الطريق إلى الحرما — البقوم — وادى تربة ووادى سبيع — قبيلة سبيع

١ — الطريق إلى الحرما

تبعد الحرما عن آبار برسيم ٦٦ كيلومتراً ، وتسير الطريق في استقامة شمالية حتى تصل حرة الرحيان بعد كيلومترين تقريباً ، وليست هي من الحرار العظيمة ، بل هي عبارة عن جبلين من الحجارة السوداء بينهما حُبة ، ويبلغ طول الطريق وسط الحرة حوالي الخمسة كيلومترات .

ثم تهتدل الطريق بعدد الحرة وتسير في أرض سهلة متواجة ذات قاع صلب الظاهر رخو الباطن مسافة ١٦ كيلومتراً ، ثم يعترضها واد مشهور يسمى « وادى القطان » ، وهو الحد الفاصل بين ديرة البقوم أى حضن وتوابعه وبين ديرة سبيع ، ويبعد عن البرسيم ٣٣ كيلومتراً ؛ والوادي المذكور مجتمع المياه المنحدرة من حضن الشمالى ، وتصب فيه شعبان كثيرة ، ثم تمتد مسافات بعيدة إلى أن يغور بقرب جبل الأشفيان . وعلى بعد ٣٠ كيلومتر من وادى قطان تصل الطريق إلى سبخة جنجف ، وحينما يكون المسافر في منتصفها يشاهد إلى اليمين حرة الكلبة وهي قسم من البقوم . بعد أن قطعنا برسيم ، أصبحت خبرة داملنا محدودة ، فهو برقاوى عتبي ، والأرض من البرسيم إلى الحرما ملك للبقوم وسبيع ، وهم أعداء عتبية وكانوا معهم قوماً^(١) ولم يكن يتسنى لهذا الدليل قبل حكم ابن سعود أن يظن بمواشيه إلى هذه الديرة ، ولذلك بدلناه بغيره في الحرما .

(١) قوم : أعداء

٢ — البقوم

يفتسب البقوم إلى الأزد ، وهم — بادية وحاضرة — أهل قوة وبأس . جباهم المنيع حضن ، ومركزهم بلدة « تربة » والقرى التابعة لها . ومُحَارِبَتُهُمْ يباغون الألف ، أو يزيدون ، غير أنهم صمدوا لجيرانهم من عتيبة وسبيع وقحطان وثبتوا على حربهم ، وهم إلى عتيبة أميل وأقرب ، وتنقسم القبيلة إلى خمس بدائد : ١ — المرزايق ، ٢ — الموركة ، ٣ — الكلبة ، ٤ — الرواجح ، ٥ — الفواصل .

ومن البقوم حاضرة استقروا في بعض بلدان نجد مثل قرية القصب التي يسكنها آل زاحم ؛ ومثل عائلات آل سُويد وآل غدِير وآل فائز وآل عوجان . قلنا إن البقوم كانوا أعداء سبيع وكانوا يتنازعون على المراعى والموارد ، ولكن ابن سعود ألف بين قلوبهم ووجد كلمتهم . فلما تنازع أهل الحرم من سبيع مع أشرف مكة المكرمة وقف البقوم أهل تربة إلى جانبهم وحاربوا معهم جنباً إلى جنب . والمعركة الشهيرة بين الإخوان وقوات الأشرف إنما وقعت في تربة التي هي مركز البقوم . وليست للبقوم إمارة قائمة بذاتها مثل سبيع ، بل إن أميرهم يعينه ابن سعود من رجاله ، وسنأتى على طرف من أخبارهم في موضع قريب .

٣ — وادى تربة

وادى تربة أو وادى سبيع هو أحد الأودية الرئيسية الستة التي تتجمع فيها مياه الشعبان والسيول المتكونة من الأمطار التي تهطل على السفوح الشرقية لسلسلة جبال السراة ضمن حدود المملكة العربية السعودية وأقربها إلى الشمال (١) . وينشأ هذا الوادى من أطراف جبل حضن الجنوبية وما جاوره من السلاسل والهضاب ، ويسير في ديرة البقوم مسافة طويلة حيث تقوم على جانبيه بلدان البقوم

(١) الأودية الستة اعتباراً من الشمال إلى الجنوب هي : ١ — وادى تربة ، ٢ — وادى رنية ، ٣ — وادى بيشة ، ٤ — وادى تثايت ، ٥ — وادى حبونة ، ٦ — وادى نجران . وسيرد ذكر هذه الأودية مفصلاً في مخنف أقسام الكتاب .

التي أهمها تربة المشهورة بواقعتها الحربية عام ١٩١٩ بين الإخوان والأشراف مما
سندكره في موضعه القريب . وحينما يصل الوادى إلى المسكان المسمى « الغريض »
على بعد ٦ ساعات للمطية من الخرما ، تكون حدود البقوم من جهة الجنوب الغربى
قد انتهت ، وتبدأ حينئذ حدود سبيع عند المروة المجاورة للغريض ، كما تبدأ هذه
الحدود من الناحية الأخرى عند وادى قطان المار ذكره . وهذه أسماء القرى الهامة
والموارد الشهيرة الواقعة على أطراف الوادى اعتباراً من دخوله ديرة سبيع .

١ — الغريض .
٢ — القرين : وهى عين ماء وقعت بجوارها معركة حامية بين الإخوان
والشريف شاكر .

٣ — حوقان : وهو مجمع مياه ونخيل وقصور .

٤ — الخرما : وهى أكبر بلدان سبيع على الوادى ، وتقع على ضفته الغربية ،
وتتألف البلدة من قسمين : أولها الخرما القديمة أو القصر العتيق ، وثانيهما هجرة
خالد بن لوى التى أنشأها فى الحرب العامة .

٥ — الدَّبَيْلَة : ماء ونخيل .

٦ — الدُّغَيْمَة : على ضفة الوادى اليمنى .

٧ — السَّلْمِيَّة : على الضفة اليسرى .

٨ — الوطاة .

٩ — أبو مُجَيْدَة .

١٠ — الحِنُو ، وهو ماء لا نخيل فيه ، وقعت فيه معركة عظيمة بين الإخوان
والشريف شاكر .

١١ — الشَّف ، والحَنَفَا ، والقنصلية ، وكلها مياه على الوادى ولا نخيل فيها .

وينتهى الوادى فى عرق سبيع ويعور فى رماله ، ويمكن اجتياز المسافة من
الغريض فى أعلى حدود سبيع على الوادى إلى العرق فى أربعة أيام على المطية .
ويمكن تخمين طول الوادى من علوه إلى مصبه بمسافة مائة وعشرين كيلومتراً .

٤ - قبيلة سبيع

تقيم قبيلة سبيع في الوادي المعروف باسمها (وادي تربة) وفي وادي رنية ، وفي أطراف حرّة سبيع وعرق سبيع ، وهي من أهم القبائل في هذه الجهة ، ولها قسم آخر يقيم في العارض المحسوب بادية لنجد ، كما أن كثيرين من سبيع قد تحضروا وسكنوا قرى نجد .

ويحيط بقبيلة سبيع في ديارها قبيلة عتيبة من الشمال والشمال الغربي ، والبقوم من الغرب والجنوب الغربي ، وقبائل الحجاز وبيشة وغامد وزهران وأكلب من الجنوب ، والدواسر وقحطان من الشرق .

ويحدّهم عن ديرة عتيبة مفيض وادي قطان عند الخنفرية وخشوم الرّحى وشعيب خنّشل من جهة الشمال ، وماء الأيسري الواقع بقرب خشم عرق سبيع من الشرق . ويحدّهم عن ديرة قبائل بيشة أرض الذهب التي تبعد عن رنية مسافة ٦٥ كيلومتراً إلى الجنوب .

ومركز سبيع بلدتان هامتان أنحرما في الشمال ، ورنية في الجنوب . وللقبيلة فروع وأقسام متعددة نذكرها فيما يلي :

أولاً - الذين في أنحرما من سبيع :

القملة ، في السلمية

العجيرية ، في الخرما

بنو كور ، في الخرما

القرشيات ، في الخرما

ثانياً - الذين في رنية من سبيع^(١) :

(١) أما الذين في نجد من سبيع فهم :

أولاً - بنو عمرو ومنهم (١) الخضران وأقسامهم العملة والجبور والنبطة والعريانات .

(٢) الصبة وأقسامهم الجمالين وآل علي وآل عزة .

ثانياً - بنوعاص ومنهم القدقة والعيادين والصيافة والقدمة وبنو محمد .

المكحلة	آل محمد
الصنادلة	الرؤية
المشاعة	السودة
المفاحة	الفراغنة
الجهوم	الشُمَيْسات
المالوح	المَرَاغين
المجامعة	الوَزْران

ولكل فريق من هؤلاء كبير ، غير أن الذين في الخلرا يتبعون أميراً من الأشراف العبادل هو ابن لؤى ، والذين في رنية يتبعون شريفاً آخر من العبادل أيضاً هو ابن صامل .

وقد كان السبعان — قبل حكم ابن سعود وامتداد حركة الإخوان إليهم — ممادين لجميع جيرانهم من الرُّوقة وبرقة من عتبية والدواسر وقحطان وأكَّاب والبقوم ، ولكن حركة التدين شملتهم قبل غيرهم ، فتآخروا مع البقوم ، وقاوموا عتبية التي كان أكثرها موالياً للأشراف في مكة المكرمة ، ووقعت بينهم وقائع عظيمة سذكرها في موضعها إن شاء الله .

الفصل الرابع

تربة والخزما

الأشراف والاخوان — مقدمات تربة — الوقائع قبل تربة — معركة تربة — وقائع ووقائع

١ — الأشراف والإخوان

يطلق على النزاع الذي قام في أعقاب الحرب العامة بين البقوم وسبيع وأحلافهم من أهل نجد وبين حكومة الأشراف في الحجاز اسم «النزاع بين الأشراف والإخوان» بالرغم من أن رؤساء الاختلاف في الجانبين كانوا من الأشراف العبادل الملك حسين وحكومته من ناحية الحجاز ، والشريف خالد بن لؤي وأتباعه من سبيع والبقوم من ناحية نجد . وقد تطوّر هذا النزاع من نزاع محلي بسيط إلى خلاف شديد بين الإخوان والأشراف ، ثم إلى حرب شعواء بين نجد والحجاز كان من نتيجتها إقصاء العائلة الهاشمية عن حكم الحجاز وانضمام الحجاز إلى المملكة العربية السعودية . نشأ النزاع عن محاولة الشريف حسين بن علي أمير مكة المكرمة أن يسطر سلطته ونفوذه على بلاد عنتيبة وحرب عام ١٩١٠ على أثر تولّيه شرافة مكة ، وعن اصطدامه بالحوية الجديدة التي بعثها ابن سعود في عقائد أهل نجد وفي معاشهم بنشره تعاليم الإسلام الصحيح ، وقضائه على الخرافات والأوهام المسيطرة على أفهام الناس وحلومهم منذ أجيال . ويمكن إرجاع أسباب النزاع الحقيقية إلى عاملين جوهريين : الأول ديني ، والآخر سياسي

أما العامل الديني فهو أن السبعان والبقوم كانوا قد أطاعوا داعي التوحيد أيام آل سعود الأولين ، ونشأت بينهم وبين أهل نجد صلوات ودّ لم تذهبها الأيام بعد أن عصفت الأرزاء بحكومة آل سعود الأولى ، فقام عبد العزيز بن سعود بدعوته السلفية قبل الحرب العامة بوضع سنوات حتى أجابها عدد غير قليل من هاتين

القبيلتين ، وكان من نتيجة ذلك تولد أسباب الاحتكاك مع جيرانهم المحافظين على جاهليتهم ، ونشوء حزازات ومطامع أدت إلى اكتساب الأمر شكلاً سياسياً خطيراً بين مكة والرياض كما هو معلوم . والحقيقة أنه يصعب تعيين مدى تأثير كل من العاملين أو تعيين المتقدم منهما . فمحاولة الأشراف توسيع حدودهم من الحجاز إلى قلب نجد عام ١٩١٠ كان العامل السياسي الأول والأخير فيما وقع ، ثم إن نهوض ابن سعود بأسر الدعوة الدينية الخالصة في نجد وإقبال البادية على اعتناق هذه الدعوة وامتداد نفوذها إلى قبائل الحجاز كان العامل الديني السياسي الذي خشى الأشراف شره وحاولوا صدّه ووقفه .

أسرف الأقدمون في التساهل في تحديد الحجاز ونجد ، وأين مبتدأ كل منهما وأين منتهاه ، وكان من نتيجة ذلك أن أصبح في إمكان أي حاكم قوى أن يدعى تبعية هذا القسم أو ذلك من البلاد للحجاز أو لنجد . ويروى في الحديث الشريف أن حدود الحجاز تنتهى حينما يشاهد جبل حَضْن ، وعلى هذا التقدير يمكن اعتبار عُشَيْرَة وأطرافها حداً طبيعياً فاصلاً للحجاز عن نجد ، غير أن الشريف حسين لم يقنع بذلك ، فادعى تبعية عُتَيْبَة وحرَب للحجاز على أمل الوصول من وراء ذلك إلى توسيع دائرة نفوذه وساططانه على التصميم ونجد ، ووضمته محاولته هذه في موقف التحدى لنجد ولأميرها على السواء ، وقد تقابل الشريف حسين بما أصابه من نجاح أوصله في هجومه على نجد عام ١٩١٠ حتى القاعية وخُفَّ عند نفوذ السرِّ ، فشرع يعدّ عدته لبطء نفوذه الكامل الشامل . وديار البقوم وسبيع واقعة بين نجد والحجاز ، فأذن لبيدأن بها ولتكون مفتاح النصر والظفر .

رجع الشريف حسين إلى التاريخ فوجد في بعض مادته ما حمّله على الاعتقاد بأن في استطاعته الاستيلاء على بلاد البقوم وسبيع ، دون أن يحسب العوامل الأخرى حسابها ، فاصطدم بإرادة الأهالي أنفسهم وبمصالح جوهرية للتأمن بأمرهم ، فتار العجاج واشتد اللجاج ، ولم تغنه قرابته من أمير الخرما ولا علاقة مكة التاريخية بالأشراف العبادل فتيلاً .

٢ — مقدمات تربة

اطلعت على رسالة بالإنجليزية وضعها المكتب العربي بالقاهرة عام ١٩١٩ لإطلاع الحكومة البريطانية على مقدمات تربة وتفاصيل حوادثها وقت اشتداد الأزمة ، فرأيت أن أسرد خلاصتها فيما يلي :

١ — في ٢٤ أكتوبر ١٩١٨ ذكر الملك حسين للكونونيل ولسن المعتمد البريطاني بجدة أن أمراء الحرم من الأشراف كانوا تابعين لمسكة وكانوا يعينون من قبل الشريف ، وأنه (أى الحسين) عزل أربعة أو خمسة منهم ، وأنه بعد وفاة منصور بن لؤى والد خالد عين أخاه عوضاً عنه ، ولكنه بعد سنتين أصيب بمرض عضال تضى عليه ، فعين خالد بن منصور بن لؤى وكيلاً للأمير .

٢ — في ديسمبر ١٩١٧ ذكر الأمير عبد الله للكونونيل كورنواليس أنه — في الحقيقة — لم يحاول أحد من أشراف مكة بعد الشريف عبد الله بن محمد بن عون (المتوفى ١٨٧٧) أن يسيطر على بلاد عتبية إلى أن تولى والده الحسين شرافة مكة . وذكر أيضاً أن مجازفة والده كانت سبباً في امتياع ابن سعود وتحرشاته . وقد كتب الحسين لابن سعود بأن عتبية وحرراً تابعون للحجاز ، فلم يوافق ابن سعود على ذلك ، غير أنه وافق على ذلك وعلى دفع ضريبة معينة للحجاز أيضاً بموجب معاهدة ١٩١٠ حين غزا الحسين نجدا .

٣ — وفي يناير ١٩١٨ جرى حديث بين الكومندر هوغارث والملك حسين بجدة ، كان رأى الملك حسين فيه خلاف رأى ابنه الأمير عبد الله ، فذكر أن معاهدة ١٩١٠ أصبحت ساقطة لقيمة لها . وزاد على ذلك أن حقيقة الواقع هي كون الأمير سعد بن عبد الرحمن تعهد بأن تعفى حرب وعتبية وسبيع ومطير من دفع الزكاة لابن سعود أولابن رشيد ، وبأن تطلق الحرية لمدن التقسيم لاختيار أمرائها وأن يدفع للحجاز مبلغ ٣٠٠٠ ريال في السنة ، وأنه برغم هذا الشرط فإن المبلغ لم يدفع قطعياً ، وذكر الملك أنه اعترف لابن سعود بحقه على عتبية حينما يكونون في بلاده .

٤ - وفي فبراير سنة ١٩١٧ ذكر الأمير فيصل (الملك فيصل) للسكولونيل لورنس أنه منذ نحو خمس سنوات شرع ابن سعود في خطته العدائية تجاه مكة ، فاستمال إلى جانبه بعض البقوم وسبيع وهدد الطائف ، فاضطر الشريف إلى اتخاذ تدابير زجرية ، فأرسل ابن سعود أخاه سعداً ليتلافى المسائل ، فتم الاتفاق على أن يكون وادي الدواسر إلى النقطة التي يصبح اسمه فيها وادي رنية تابعاً لابن سعود ، وأن تكون أودية الخرما وبيشة ورنية للشريف ، واعترف الشريف بإمارة ابن سعود على قحطان ، كما اعترف ابن سعود بإمارة الشريف على عتبية^(١) . وفي عام ١٩١٢ عاد النشاط لابن سعود فاضطر الشريف إلى إرسال ولده عبد الله إلى ديار عتبية فبلغ حداً لم يبلغه الأشراف من قبل من جهة الشرق .

٥ - وفي ٢٩ مارس ١٩١٩ كتب الشريف حسين إلى المتمد البريطاني بحجة كتاباً برقم ١١٠٧ قال فيه : « نحب أن نوضح لكم أننا بذكرنا الرّوقة فقط في الخريطة التي وضعتها لولسن باشا لأجل إراءته قسماً من المملكة العربية الهاشمية ، لم نكن نقصد مطلقاً أن الخرما وتربة ورنية وبيشة والدواسر غير تابعة للعاصمة (يعنى مكة) لأنه حتى هذه الساعة نحن الذين نعين أمراءها ونجبي زكاتهم وجهادهم يرسل إلينا ، وأنا الذي عينت خالداً أميراً على الخرما وعزلت الشريف محمد بن سلطان من بيشة ، وضممتها إلى خالد^(٢) .

٦ - أما رأى ابن سعود الذي أدلى به للشريف حسين وللحكومة البريطانية فهو أنه لا يوجد أساس لمدعيات الشريف حسين بشأن تربة والخرما ؛ فضلاً عن المدعيات بشأن ديار عتبية في نجد ، وأن حدود الحجاز من جهة الشرق تنتهى بقرب وادي العقيق (عُشَيْرَة) عملاً بالحديث الشريف وبالتعامل الجارى بين العرب ، وأنه لم يسلم قط بأن للشريف أى حق على نجد أو قبائلها ، وأنه لا يوجد ما يبرّر سياسته

(١) لاشك في أن الذى نقل الكلام من لسان الملك فيصل كان مجهول أوضاع الأودية المذكورة فجاء الكلام غير مستقيم كما يرى .

(٢) في هذا الكتاب مطلب صعب جداً بشأن وادي الدواسر لا يسلم به أهل نجد .

القهرية ضد أهل الخرما وأهل الوديان على الإجمال لاعرفا ولا ناريضا ، ولا من حيث الدين ، وأن أهل الوديان يحسبون من أهل نجد ، وأن إرادتهم وميلهم هما الأساس في حل الخلاف ، ولا يوجد بينهم من يريد الشريف أو حكومته .

وقد عجزت أساليب السياسة والتحكيم عن حل الإشكال ، فأهل الخرما وأتباعهم لم يقبلوا الشريف ولا حكومته وطلبوا الإمداد والنجدة من الإمام ابن سعود في الرياض ومن كافة الإخوان في نجد ، وحكومة مكة أصرت على خلع « خالد » وضم بلاده للحجاز فلم يكن بدّ - والحالة هذه - من نشوب القتال واستعار لهيبه بين الفريقين .

٣ - الوقائع قبل تربة

لم يعلن أهل (الخرما) خلع نير حكم الشريف في مكة إلا عقب إعلان الحرب العالمية وقيام الشريف حسين بالنهضة العربية . وقد اشترك الشريف خالد بن لؤي أمير الخرما في حركات الحرب الأولى حول المدينة ، ولكنه كان يرى نفسه مضطراً إلى مجارة أهل ديرته فيما هم عليه من اتباع أهل نجد والسير على خطتهم ، وكان يرى وأياً مخالفاً لرأى الأشراف فيما يتعلق ببعض المسائل الاجتهادية . وقد ذكر لي في الخرما أنه لم يكن موافقاً على قصر الصلاة بدعوى إعلان الجهاد وغير ذلك من التسهيلات . عاد « خالد » من عند الأشراف في الحجاز إلى ديرته ، فوجد الخلاف على أشده ، بين أنصار الفئتين من جماعته ، غير أنه رأى الكفة راجحة بجانب أهل نجد ، فترأس الحركة الجديدة وانضم إليها وجاهر بها ، ثم سافر إلى الرياض وأعلن خضوعه وولائه ، وطلب « مطوعاً » ليكون مرشداً لأهل الخرما في شؤونهم الدينية ، وقاضياً يفصل في منازعاتهم ، فأجيب إلى طلبه ، وسلم إليه لواء من ألوية الجهاد . وبعدهودته إلى الخرما أنشأ هجرته التي ذكرناها فيما تقدم من البحث ، وأصبح منذ ذلك الحين عاصياً لحكومة مكة نائراً عليها ، ووجب على الحكومة أن تؤدبه . غير أن الشريف حسين لم يجازل ذلك في مطلع الأمر ، ولم يرسل عماله لجمع الزكاة كالمعتاد .

وفي أوائل عام ١٩١٨ أرسل الشريف حسين عماله لجباية الزكاة من سبيع ،
فما كان من خالد بن لؤى إلا أن اعتقلهم ومنعهم من القيام بمهمتهم ، ثم جمع قوة
من الإخوان طهر بها العناصر المعادية له من أهل الخرما ، وبذلك بدأ النزاع بينه
وبين مكة .

وفي شهر مايو من ذلك العام كتب الملك حسين إلى الحكومة البريطانية ملفتاً
نظرها إلى أعمال ابن سعود ومدخلاته مع القبائل التي كانت تخضع للحجاز من قديم
الزمان ، وعلناً لها اعتزامه إنفاذ قوة تأديبية إلى الخرما ، وقد أنفذ بالفعل قوة مؤلفة
من ١٠٠٠ مقاتل بقيادة الشريف حمود بن زيد ، فالتقى بها الإخوان في ٢٥ شعبان
سنة ١٣٣٦ هـ (مايو ١٩١٨) في حَوْقَان ، وهزموها وشتتوا شملها .

أعان الملك حسين في جريدة (القبلة) أن القوة بلغت هدفها الذي رسمه لها ،
ولكنه بالرغم من ذلك أمدها في شهر يونية بنجدة عسكرية فنية معها عدد من المدافع
والرشاشات ، ولا يعلم في الخارج شيء عما جرى للقوة الأولى ولا للنجدة . والحقيقة
أن النجدة وقعت في كمين نصبه لها الإخوان في جِبَار في ١٧ رمضان سنة ١٣٣٦ هـ
فقضى على أكثرها .

وقد بلغت الوقائع قبل معركة تربة حوالي عشر كان الفوز فيها دائماً حليف
الإخوان . أشدنى بعض أهل الخُرما شعرا طويلاً جديراً بتسميته (ملحمة) للوقائع
وتفاصيلها جاء فيه :

قُرَيْنٌ (١) وَحَوْقَانٌ (٢) وَحِنُوٌ (٣) مَصَارِعٌ وَجِبَارٌ لَيْسَ بِجَابِرٍ لِلْكَافِرِينَ
وهذا بيان الوقائع حسباً أملاه على أهل الخرما :

أولاً : وقعة حَوْقَان السالفة الذكر في ٢٥ شعبان سنة ١٣٣٦ (مايو ١٩١٨)
قائد الإخوان فيها خالد بن لؤى ، وقائد جند الشريف حمود بن زيد .

ثانياً : وقعة جِبَار في ١٧ رمضان سنة ١٣٣٦ (يونيو ١٩١٨) القائدان كما

في الموقعة الأولى ، ولكن جند الشريف يمتازون بسلاح المدافع والرشاشات ،
ثالثاً : وقعة الحِنُو ، في ٩ ذى الحجة سنة ١٣٣٦ هـ (أغسطس ١٩١٨) ،
وذلك أنه على أثر انكسار قوات الشريف حمود مرتين كما تقدم ، صدر الأمر
للشريف شاكر بن زيد أخيه بأن يتقدم لاحتلال الخرما وديرية عتيبة بصفته أميراً
على كافة عتيبة ، فجاء الشريف شاكر وعسكر في مرّان إلى الشمال الغربي من الخرما ،
وشرع في إثارة خواطر عتيبة على سبيع وأهل الخرما . ووفق إلى تأليف غزو من المتطّعة
برئاسة شليويج ، ولكنه مُني بما منى به الغزوان السابقان . ولم يجد الأمير شاكر
بداً من الهجوم بنفسه ، فجمع ما لديه من قوات بدوية وحضرية ، وجعز مدفعيته
ورشاشته ، ووصل آبار الحِنُو على بعد ٢٥ كيلومتراً إلى الشمال الشرق من الخرما ،
وكانت قوة الإخوان مؤلفة من ١٥٠٠ رجل من مقاتلة أهل الخرما ووادي سبيع
و٥٠٠ مقاتل من أهل الغَطَطَظ و٢٥٠ من أهل الرّثين . وأما قوات الشريف شاكر
فإنها كانت مؤلفة من ألف جندي نظامي و٤ مدافع و٦ رشاشات ، ومن غزو العتبان
الموالين للأشراف وغزو أهل الطائف من قبائل بني سعد وهذيل وسفيان وغيرهم ؛
بحيث أن أهل الخرما كانوا يقدرّون مجموع قوات الشريف شاكر بستة آلاف مقاتل .
بدأ الإخوان المعركة بهجومهم الليلي المعلوم ، وصبّحوا القوم « هَجَاداً » من
الفجر المبكر ، واشتبكوا معهم في معركة حامية الوطيس دارت المائرة فيها على جند
الشريف شاكر ، ففرّ ببقية جنده قافلاً إلى مرّان على عجل . وكانت حجة الأمير
شاكر في انكساره أن كثيراً من الرُّوْقَة وَبَرَقَة انجاز إلى جانب الإخوان قبل أن
تدور المعركة وتركوه مع القوة النظامية وغزو تقيف وسعد وهذيل من أهل الطائف ،
ولم يكن له قبيل بمقاومة هجوم الإخوان العنيف .

وهجعت الحوادث بعد الحِنُو بضعة أشهر تخللتها هجمات من سرايا الإخوان
على القوافل التي كانت تنقل الأرزاق والدخيرة إلى معسكر الأمير شاكر . وكان
الأمير عبد الله بن الحسين محاصراً المدينة ، فأراد القدوم بنفسه إلى (الخرما)
غير أن ضرورات الحرب ألبّأتها إلى التريث خوفاً من رد الفعل والانتكاس .

٤ - تربة

(تربة) بلدة البقوم كما ذكرنا، وهي واقعة على الوادي المعروف باسمها الذي يصبح اسمه - بعد وصوله إلى الغريص - وادي سبيع ، وهي أصغر من الخرما ، وأقل سكاناً وأهمية ، إذ كان مركز النقل السياسي في النزاع بين الإخوان والأشراف مستقراً في الخرما ، غير أن شهرة تربة بعد الموقعة الشهيرة التي دارت رحاها فيها في شعبان سنة ١٣٣٧ (١٩١٩) قد طغت على الخرما وكسفتها .

دارت الوقائع التي سردناها في النبذة السابقة خلال الحرب العامة ، حين كانت القوات العربية الحجازية محاصرة للأتراك في المدينة المنورة ، وكان القائم بأمر الحصار حضرة صاحب السمو الأمير عبد الله بن الحسين (ملك شرق الأردن حالا) ، فأراد أن يزحف بقواته على (الخرما) وينهى أمرها عقب واقعة الحنو التي دارت فيها الدائرة على جند الأمير شاكر . غير أن الخوف من أن ينتهز فخرى باشا فرصة غيابه ونقص القوات المحاصرة للمدينة فيقوم بحركة خروج قد تمتد إلى أطراف مكة اضطره إلى التريث على مضمض .

استعاد الأمير عبد الله حريته في العمل ضد أهل (الخرما) بعد استلام فخرى باشا في المدينة في يناير سنة ١٩١٩ ، وخطا الخطوة الأولى بمغادرته المدينة ، ترافقه القوة الحضرية من جند الحجاز بمدافعها ورشاشاتها ، تظاهرها القوات البدوية ، وسار من المدينة على الطريق الشرقي ، وعسكر في أوائل إبريل في عُسَيْرَة . وقد اختلف الرواة في عدد القوات الحضرية التي كانت تحت قيادته ، فبعضهم يبالغ فيها ويجعلها آلافاً ، وبعضهم على الضد من ذلك يزعم أن عددها لا يتجاوز المئات . أما ضباط الاستخبارات الإنجليزية حينئذ فيقدرون القوة الحضرية بما لا يزيد عن ٦٠ ضابطاً و ٧٧٠ صف ضابط وجندي و ١٠ مدافع و ٢٠ رشاشة . والواقع أنهم يفوقون هذا العدد .

وما إن بلغ خبر حركة الأمير عبد الله من المدينة مسامع ابن سعود حتى احتج على ذلك وأندر خصومه بما يجروه عمل الأمير من النتائج الخطيرة ، وأنه مضطر لمقابلة حركة الملك حسين والأمير عبد الله بمثلها .

بدأ الأمير أعماله العسكرية بإفخاذ السرايا لتأديب القبائل العاصية ، فقابل الإخوان أعماله بمثلها وشرعوا في شن الغارة على القبائل الموالية له . وكانت الحادثة الأولى في الدغيبجة في أوائل مايو ١٩١٩ ، إذ هجم الإخوان على بعض العتبان ونهبهم ، فأنفذ الأمير سرية تفتني أثرهم فلم تظفر بهم بل ظفرت بفرو آخر من الإخوان كان قاصداً المهجوم على مخفر شريفى يدعى مُدْرَج . وفي تلك الأثناء أيضاً هجمت سرية من سرايا الأمير على فريق من الإخوان في الرخيم وقضت عليه .

ظعن الأمير بقواته من معسكره وخيم في البديع في سفح حصن ، وتوجه منها إلى تربة . وفي ٢١ مايو ١٩١٩ أعلن احتلاله لتربة بعد معركة دامت ساعتين ونصف ساعة ، وأنه — بعد أن جمع قواته — شرع في الاستعداد للتقدم على الخرما ، ثم خاطب رؤساء قبائل سبيع والبقوم وأمرهم بتقديم الطاعة والخضوع وهددهم في حالة عدم الطاعة بسوء المنقلب . غير أن الأمر لم يدم طويلاً ، إذ كان الإخوان يمدون معداتهم لمفاجأة معسكر الأمير في ذلك اليوم نفسه .

وكان ابن سعود على علم بتدابير حكومة مكة ، وكان — بواسطة جواسيسه — على اتصال وثيق بما يجري في مخيم الأمير عبد الله في عشيرة ، ولذلك فإنه لم يؤخذ على غرة حينما سمع بحركة جيوش الأمير من عشيرة في طريقها إلى وادى سبيع بعد اجتماع الأمير بوالده الحسين والتشاور معه في الخطة ، بل شرع في الاستعداد للحرب بأن أنفذ بعض قوات الإخوان من هجرة العظاظ وسواها من هجر عتيبة لتكون إلى جانب أهل الخرما ، كما جهز قوات أهل العارض تحت إمرته وسار بها غرباً وعسكر في الساخة شمال شرق الخرما على بعد أكثر من مائة كيلو متر عنها . وأصدر أمره إلى الإخوان بأن لا يكونوا بادئين في القتال ولا مهاجمين بل يظاوا صائدين مدافعين .

ولم تكن تربة هدف الأمير الأساسي بل كان يستهد لضرب الإخوان في الخرما ، ولهذا فإنه ما كاد ينتهي من مسألة تربة حتى شرع في الاستعداد للتقدم إلى الخرما ، ولكن الإخوان كانوا أسبق إلى لقائه فلم يتركوا له مجالا للوصول إليهم ، إذ لما بلغتهم أنباء هجومه على تربة كانوا في موقع اسمه القريين ، وهو ماء على وادي تربة بينها وبين الخرما ، فلم يلبثوا إلا ساعتهم ثم شرعوا في المسير بعد غروب شمس يوم ٢٥ مايو ١٩١٩ (٢٥ شعبان ١٣٣٧) فوصلوا تربة بعد بضع ساعات دون عناء الديرة ديرة الإخوان ، فهم يخبرونها شبرا شبرا ويعرفون سهلها وجبلها وحزمها وشعيبها ونخيلها ومزارعها وبيوتها وقصورها ، فلم يحتاجوا إلى كبير عناء لمعرفة ما يجب عليهم عمله حين مباغته جند الأمير بهجوم مفاجيء .

رتب الإخوان أنفسهم رتباً وفرقا ، وتولى كل فريق أمر فريق معين من جند الأمير النظامي والبدوي ، وكانت جواسيس الإخوان وعيونهم قد عرفت مواقع الجند ومنازلهم وعدد من فيها بالتقريب ، واستعانوا بالرحمن في هجومهم الليلي الذي اشتبهوا به والذي يلتقي الرعب في قلوب خصومهم ، وحلوا حملة صادقة مكبرين مهللين .

ولم يكن الأمير متوقفاً هجوماً سريماً كهذا ، وظن أن احتلاله لتربة قد ألقى الرعب في قلوب الإخوان وأحلافهم ، بل ظن أنهم لا يجرون على الوقوف في وجهه فضلا عن الهجوم عليه . ولذلك نام ونام جنده ، وهو خالي الذهن مطمئن البال .

وأفاق الجند كما أفاق الأمير على أصوات الإخوان مهللين مكبرين ، وقد عقد الذعر سرادقه فوقهم ، فعجزوا عن استجماع قوتهم للمقاومة ، وفر كثيرون تاركين أسلحتهم وبنادقهم دون أن يلجأوا على شيء ، وتمكن الأمير من امتطاء فرسه له قريبة منه ، وعاد أدراجه من الطريق التي جاء منها منذ أيام ، ولم يقف إلا عند الأخيضر

تحسب معركة تربة من أشد المعارك الحربية الفاصلة في تاريخ جزيرة العرب الحديث . وستظل ذكراها عاتقة بالأذهان كلما ذكر اسم تربة والإخوان ، إذ قد

obeikandi.com

ملك واحد ، فتحيا حياة واحدة ، ويكون من اتحادها عزّ وعظمة ، ومبدأ وحدة عامة شاملة بإذن الله .

٥ - وقائع ووقائع

بعد معركة تربة ، اشتدت العداوة بين الإخوان والقبائل الموالية للأشراف في الحجاز من حَضَن إلى قرب عَشِيرَة والطائف ، وكان القسط الأكبر من عبء الهجوم والدفاع واقعاً على عاتق أهل تربة والحрма من سبيع والبقوم نظراً لقرب ديارهم وكونهم أول من قام بالدعوة في غرب نجد ، فكثرَت الوقائع وتعددت السرايا من الجانبين على غير جدوى . وكان للأشراف مخفران في كَلَاخ والأخْيَضْر ، ولكن الإخوان كانوا يتعدونهما إلى جوار الطائف فيصولون ويجولون ، وينهبون ويقتلون ، ويد حكومة الشريف قاصرة عنهم .

فمن الوقائع الهامة وقعة قريش على الأخيضر في أواخر عام ١٣٣٧ (١٩١٩) ، فقد أغار الإخوان على قبيلة قريش وأحلافها ، واستاقوا كثيراً من الحلال والمال ، وعادوا إلى ديارهم سالمين .

وفي عام ١٣٤٠ وقعت وقعة الخرائق ، وفيها قتل عبد المحسن بن خالد ابن لؤى .

وأهم الوقائع على الإطلاق هي التي وقعت في مطلع صفر ١٣٤٣ (١٩٢٤) حينما رحف الإخوان تحت إمرة خالد بن لؤى على رأس جماعته أهل تربة والحрма من سبيع والبقوم ، وأحلافهم من عتيبة (برقة والروقة) بقيادة سلطان بن بجاد كبير هجرة العَطْفَط ، وتقدموا من الحрма إلى كَلَاخ ثم الأخيضر ، حيث جرت موقعة كبيرة لم تحل دون إحداقهم بالطائف وحصاره ، ثم الاستيلاء عليه وضمه إلى أملاك ابن سعود .

سار الفاتحون من أهل الوديان بمد الطائف إلى الهدى ، وتقدموا إلى الزيمة
فكرة المكرمة ، ودخلوها محرمين منبئين . فأصبح النائر العاصي فاتحاً ظافراً ،
والشريد الطريد أصبح أميراً حاكماً . وهذا من عبر الزمان وتقلباته .

لو علم الشريف حسين أن ابن عمه خالد بن لؤى سيكون سبباً لنيل عرشه
لما عينه أميراً على الخرما ، ولو اطلع على لوح القدر لما أقدم على ما أقدم عليه
من مناوأة أهل الخرما ومحاولة الاستيلاء عليهم بالقوة .
ولكن (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء) .

الفصل الخامس

وادي رنية

المسير من الحرما - سنة الطريق - رنية - الوادي من علوه إلى مصبه

١ - المسير من الحرما

كان مسيرنا في أوقات قلقة غير عادية ، إذ كنا نشاهد في طريقنا كتائب المجاهدين سائرة الهويني ، فنسألها حين نمر بها عن أخبارها . أما في الحرما فقد قابلنا غزو الرثوقة من عتيبة بقيادة الأمير عمر بن ربيعان . كان سير الغزاة بطيئاً بسبب إبلهم وخيلهم ، أما الإبل فكانت تقضي نصف الوقت اللازم لاجتياز المسافات بسبب ضعفها وندرة الكلال على جانبي الطريق ، وأما الخيل المُجَنَّبَة فكانت على وشك الوضع ، فلم يكن بد من السير على مهل .

تقابلنا مع الأمير عمر وأبناء عمه ، وتباحثنا في الموقف مع اليمين ، وكانت ذهنية المحاربين غريبة في بابها ، وهي تدل على شيء كنا جميعاً نلمسه في علاقاتنا مع جارتنا الشقيقة حكومة اليمين ، ذلك الشيء هو السياسة المقنعة غير الواضحة وسياسة المظل من جانب اليمين ، وقد قاسى الإخوان بسبب ذلك مشقات كثيرة . فإنهم سيقوا إلى الحدود عدة مرات ، ولكنهم كانوا يرجعون في كل مرة بدون قتال ، وما يكادون يصلون إلى أوطانهم حتى يناديهم منادى الغزو وداعى الحرب أن عودوا إلى الحدود اليمانية . فسئموا هذه الحال ، ورأوا أن لا بد من حل المشكلة حلاً نهائياً ، إما بالصلح الشريف المرضي وإما بالحرب ، وليس ذلك عن رغبة في الحرب من حيث هي ، بل عن نفرة من ترك الأمور على غواربها ، فتضطر الحكومتان في كل وقت وحين إلى إنفاذ السرايا والبعوث . ومن أجل ذلك قال لي ابن ربيعان : « إن لم يكن الصلح الذي تمقدونه صلحاً أساسياً دائماً فإنني أدعو لكم بالفشل في مهمتكم » .

تركنا ابن ريمان وجماعته ، ومشينا من الجانب الغربي للوادي على أمل اجتيازها إلى الجانب الشرقي ، ففرزت سيارة الانتقال في رماله ، ولم يتسكن الرفاق بمعونته أهل القرية من إخراجها إلا بعد جهد دام ست ساعات تقريباً . أما أنا فقد اغتنمت هذه الفرصة لأدوّن معلوماتي عن أنخرما ووادي سبيع ، ولأستمع إلى بعض شيوخ أنخرما وهو يروى لي وقائع الإخوان والأشراف مما ذكرته في الفصل السابق .

كان البرد عند الصباح شديداً جداً ، فقد سجل مقياس الحرارة ٤٦ درجة فهرنهايت ، وكانت قراءة البارومتر ما يقرب من ٣٥٠٠ قدم ، والرياح كانت تعصف بشدة وتلفح الوجوه بصقيعها ، فوجد الرفاق في إخراج السيارة الفارقة في الرمل سبيلاً للدفء والنشاط ، غير أن حماسهم لرفيقهم الجديد « الدليل » كان ضعيفاً . والحق يقال إنه كان خبيراً بديرتة كل الخبرة ، ولكن حينما اجتازناها إلى حدود رنية ظهرت عليه علامة العبيّ والرغبة في إعطاء المعلومات صحيحة كانت أم خاطئة ، ولم تكن له خفة دليل اليوم السابق ولا ذلائفته .

كانت خطتي عدم السير ليلاً إلا مضطراً ، كي أتمكن من مشاهدة معالم الطريق في ضوء النهار . ولذلك فإن تأخرنا في المسير من أنخرما حتى الظهر حتم علينا المبيت قبل أن نبلغ رنية ، مع أن المسافة بينهما لا تزيد على ١٤٠ كيلومتراً ، وسأصف فيما يلي طريقنا التي سلكنا وما على أطرافها من المعالم البارزة .

٢ - صفة الطريق

المسافر من أنخرما إلى رنية لا يطأ أرض حرة سبيع المشهورة ، ولا يطأ عرق سبيع الرمل وهو مشهور أيضاً . أما طريق القوافل والمشاة فإنها تخترق الحرة من جنوبها إلى شمالها .

كانت استقامة سيرنا من أنخرما إلى رنية استقامة الجنوب مع ميل خفيف بادئ الأمر إلى ناحية الشرق ، وحينما يفارق المسافر نخيل أنخرما يبارى سلسلة من الهضاب القليلة الارتفاع والممتدة على ضفة الوادي الشرقية برهة غير قصيرة إلى

أن يصل مقطع شعيب « أم ران » وهو من الشعبان الصغيرة التي تفيض في وادي سبع . وتتغير طبيعة الأرض من سهلة ناعمة إلى سهلة حصباء إلى رملية إلى قاع رخو قد نثرت عليها حجارة من بقايا الحرة السوداء النخرة ، فجعلتها شبيهة بأرض الحرة إلا أنها ليست منها . وتقع حرة سبع على يمين المسافر من الحرما إلى رنية . وبعد نحو عشرة كيلومترات تبدأ أرض تسعى « الشقيق » إلى مسافة خمسة كيلومترات ، ثم تأتي أرض تختلف عنها اسمها أرض « القشاشة » ، وتختلف عن سابقتها بأنها رخوة ناعمة قد كسى سطحها بالبطحاء والحصباء . ثم تأتي أرض « الجعدة » وطولها تسعة كيلومترات ، تشبه الحرة في شكلها وحجارتها وسواد لونها . وتأتي بعد ذلك أرض « أم الملح » ومنها يشاهد إلى جهة الغرب بقرب الأفق ضلعان هما : « الأسيان » ثم تتتابع الأراضي بأسمائها المختلفة على الوجه الآتي :

اسم الأرض	كيلومتر
دحلة المصاعبة	٣
أرض شعيب البدرى ، وبقربها ضلع العسكر	٥
وإلى الشرق ضلع عنيزة ، ثم جبل « تين »	٧٥
أرض المعاشير ، وبقربها ضلع الحميمة إلى الشرق	٨
أرض « شعيب الناصفة » وبقربه ضلعان أبو السنون وضبع واليعايم	١٧
أرض الشجرة	١٥
أرض سَرَجُوج ، ويشاهد منها إلى الجنوب الشرقي من ضلع ضبع جبل مرتفع كالسنان اسمه غرمول	٥
أرض « ذليقان » ، وتقع جبال اليعايم إلى شرقها	٥
أرض شعيب « مراخة » ، ومنها يشاهد « كراع حنجرات » إلى الغرب	٧

ومما يجب الالتفات إليه أن الأرض في هذه الجهات تسمى بأسماء الضلعان والمضاب التي تجاورها . فلكل جبل أو هضبة اسم معلوم ، وشعيب يعنى مياه الأمطار المتساقطة ، وأرض محاذية تمتد بقدر امتداد الهضبة أو الجبل أو سلسلة الجبال . بعد أرض « المراحة » تبدأ أرض تعرف بأرض « شعيب الجزعة » بقرب رجمة من الصخور قائمة وسط السهل ، وهذه الأرض تشبه الحرة في تكوينها . ثم تأتي إلى أرض « الأغر » ، وبعد مسير ١٥ كيلومتراً فيها تدخل الطريق بين منطقة جبلية وتصبح الهضاب على الجانبين ، ولكن الفرجة تستمر في التناقص إلى أن تصبح صغيرة جداً حينما تصاقب الطريق جبل بضيع . ومتى وصل المسافر بضيعاً علم أنه أصبح بقرب رنية . ومن هنا تشاهد جبال مختلفة تعرف باسم « الرزيزاء » والخراشف والتغدوة وورك منيرة .

٣ - رَنِيَّة

لكل قرية أو بلاد علامة تدل على الاقتراب منها . فالمسافر من مكة إلى الرياض يعلم أنه قد اقترب من المويه حينما يصل الحلمة ، ومن الدفينة حينما يشاهد النهود ، ومن القاعية إذا شاهد ذريع وهكذا . وأما القادم إلى رنية فإنه يرى أمامه من بعيد منظرًا عجيباً جداً هو أقرب ما يكون إلى منظر بلدة عظيمة ذات قلاع وأبراج ومآذن ومساجد ، ولكنها في الواقع مناظر الجبال والتلال التي تظهر في الأفق بأشكال بهيجة تنعكس عليها أشعة الشمس فتكسبها منظرًا خلاباً يأخذ بمجامع القلوب ، وقد يكون للسراب وخداع البصر دخل عظيم في روعة المنظر وإكسابه ذلك الشكل المعرى الخلاب .

ويطلق أهل هذه البلاد على أماكن فيها أسماء غريبة مستهجنة ينجل الكتاب من تسميتها بالصراحة التي يستعملها أهلها . ويكثر في هذه الجهات استعمال جملة (طيب الاسم) ، يكنون بها عضو التأنيث . وهناك قرية في وادي شهران بجوار سوق خميس مشيط اسمها (طيب الاسم) ويسمونها أهلها (كسيسان) . أما في رنية

فهناك كما ذكرنا (غرمول) ، وهناك (ذكر الخثعمي) و (ورك منيرة) ، وهناك (الرزياء) و (طيب الاسم) . يذكرون الأسماء بالألفاظ المستهجنة ذكوراً وإناثاً بدون أى تكلف أو خجل .

لتسمية « . . . الخثعمي وورك منيرة » قصة يتناقلونها في رنية بدون استحياء : كانت امرأة من رنية ترعى غنمها بقرب الجبل الواقع إلى جنوبي الديرة ، وكانت هزيلة قليلة اللحم والدم ، فتمنت على الله أن يمنحها الصحة والعافية بحيث يصبح كفلها كالجبل القريب منها ، فأطلق على الجبل اسم « ورك منيرة » صاحبة القصة . وكان يقربها رجل من خثعم تني لو منح ذكراً كالجبل المستقيم كالسنان ، والواقع بقرب الورك ، فأطلق على هذا الجبل المحدد الشامخ اسم « . . . الخثعمي » دون حياء .

تقع رنية أو بالأحرى البلدة الكبيرة في رنية على أطراف الوادي المعروف باسمها والذي ينحدر من جهة الغرب والجنوب متجهاً إلى الشمال الشرقى . وتحيط الجبال بالبلدة — من بعيد — من جميع جهاتها ، حتى إن القادم من الشمال يضطر إلى ولوج فجوات عديدة بين الجبال إلى أن يصل الديرة .

والجالس أمام قصر الأمير ابن صامل — شريف من العبادل — يرى جبل « التَّقْدُوة » أمامه من جهة الشمال ، وجبلي الورك والخثعمي من الجنوب والجنوب الشرقى ، وسلسلة المسلوخ إلى الشمال الغربى ، والمرآشيف والسَّوَادَة والفهدان من الغرب .

وقصر ابن صامل بنى على ربوة مشرفة على الوادي والسهل المحيط به في منطقة متوسطة بين أسفل الوادي وعاوه . وتسمى البلدة التي فيها القصر (الحَزْم) وبقربها بلدة (الرُّوْقَة) التي هي السوق .

بتنا ليلتنا عند جبل الرزياء ، وكانت الليلة باردة ، فلجأ الرفاق إلى كهف طبيعي نصبوا الخيام عند مدخله .

٤ — وادى رَنْيَةَ

كان يجب أن يطلق اسم (وادى سبيع) على (وادى رنية) لأنه ملك لسبيع من منبعه في بلاد غامد إلى مصبه في رِغْوَةَ ، على حين أن الوادى المعروف باسم وادى سبيع هو القسم الأخير من امتداد وادى تربة بعد دخوله في حدود بلاد سبيع كما مر في فصل سابق .

يتألف وادى رنية من مجموعة من الشعبان تنشأ في بلاد غامد في السراة الحجازية وهو أحد الأودية الستة التي ذكرناها في الفصل الأول . ويتجه من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى ، وكان يظن أنه ينتهى في وادى الدواسر ، والواقع أنه ينتهى في عرق الدواسر ولا يتصل بالوادى نفسه .

وتقوم على أطراف الوادى المزارع وحدائق النخيل والقصور والقرى إلى مسافات بعيدة ، ولكن أكثر العمران فيه يبدأ من حين دخوله في بلاد سبيع ، والقرى الواقعة على الوادى متقاربة متصلة ، يرى الإنسان إحداها من الأخرى ، إلا أن أعظما وأهمها ما كان واقعا عند منتصفه حيث يأخذ الشعب أقصى اتساعه وحيث تكون الأراضي الواقعة على أطرافه أخصب وأصلح للزراعة والفلاحة .

علاو الوادى عند ماء (ثَرَاد) في ديرة غامد . ومن منبعه إلى حين دخوله في أراضي سبيع هو خال من القرى ، ولكنه لا يخلو من مياه أهمها (ثراد) ثم (العقبق) وهو ماء ونخيل لغامد ثم المشورة ، وهو ماء لغامد تجاوره مزارع ، وهذه هي أسماء المياه والقرى الواقعة على الوادى بعد دخوله في أرض قبيلة سبيع :

الصنيرية ، المصيدة ، عين أبي مليح ، الملاح . كلها مياه لسبيع ، وقد يكون بقرها مزارع وعثارى .

الخيفيشة : ماء ، وبقره نخيل ينزله الشواوى من شمران وسبيع .

المغرة : ماء ، وفيه نخيل وقصور .

الفجانة : مزارع ومياه ، ولا نخيل فيها .

الأملح : وهو أول العمران في وادي رنية من جهة الجنوب الغربي ، وهو ملتقى طرق القوافل بين الحرما ورنية وبيشة .

الحَجَف : قرية ونخيل .

الجُرُثْمِيَّة : « »

الضرم : تتألف من خمس قرى متلاصقة ومزارع شتوية هي : اللوى ، قرّة ، الظهيرة ، حويّد ، مقابل .

كويكد : قرية ونخيل .

ملهى : « »

الحزم : وهي بلدة الحكم ، وفيها قصر ابن صامل

الروضة : وهي السوق الأسبوعية .

الدعيكة : قرية ونخيل .

المساورة

العطاف

المدهال

العمائر : وهي قرية ونخيل للشميسات من سبيع ، وهي آخر العمران من جهة

الشمال الشرق .

وبعد هذه القرى توجد مياه يردّها الرعاة وهي : الرّجع ، المنعشة ، رِغوة ، جرَيْد

في بلاد الدواسر ، وماء الوغذية وظاعن حيث يختلف في عرق وادي الدواسر عند

هجلة الختمية .

ويفيض في وادي رنية من اليمين شعيب البَحْرة ، ومن الجهة اليسرى شعيب

عَثْران عند الأملح وشعيب قرّة عند بلاد الضرم .

معيشة أهل رنية بسيطة هادئة . هم زراع بالطبع ، وأهم زراعتهم النخيل والحبوب ،

وهم بعدُ أهل ماشية وجمال ، وعندهم ذوق في صناعة النسيج الصوفي الخاص بالأخرجة

والهميانات . وهم وأبناء عموماتهم في الحرما متفقون ضد أعدائهم الكثيرين في كل

أطرافهم ، ولكنهم في رنية أبعد من غيرهم عن الفتن والحروب . وقد رأينا في المنازعات التي قامت بين الأشراف والإخوان أن سبيع من أهل الخلرا وجيرانهم من البقوم قد حملوا القسط الأكبر منها ، أما أهل رنية فكانوا يفزعون وقت الحاجة فقط .

ويقع معظم العمران على الجانب الشمالي الغربي للوادي ، والاجتياز من جانب إلى آخر يستلزم قطع المغازة الرملية في بطن الوادي أو بالقرب منه ، وكثيراً ما تفرز السيارات — وبالأخص الثقيلة منها — في رماله ولا يمكن إخراجها إلا بعد عناء شديد ، وهذا هو السبب في أن أكثر السيارات تفضل السير مع الضفة الشمالية الغربية إلى مسافة بضعة كيلومترات غرباً حتى تدور من جوار قرى الصرْم الأربعة في علو الوادي ، ومع ذلك لا تسلم من التعرير .

حينما رجعنا من أ بها ، كانت الأمطار عاتية والرمال متمسكة ، فسلكنا بطن الشبيب أمام قرية الحزم ، واخترقنا المسافة اختصاراً ، فوجدنا الفرق بين الطريقين عظيماً يتجاوز بضعة عشر كيلومتراً .

مما يؤسف له أن حالة هذه البلاد الاجتماعية كحالة سائر البلدان المنعزلة عن العمران ، لا تفكر في غير معيشتها المادية اليومية ، وليست لها آمال أو آماني بعيدة . يستغلون الأرض بعد حرثها ، ويزرعون النخيل ، وينتظرون لقاء الله في الآخرة . ومن هنا نشأ عدم اهتمامهم بالتغيير والتجديد .

ونساء هذه البلاد في معاشهم مثل نساء بلاد الطائف ، وإن كنَّ إلى البداوة أقرب ، ويشعر المسافر بالفرق بين أحوال النساء في هذه الجهة وبينها في عسير بمجرد وصوله إلى بلاد « خبير » في منتصف بلاد شهران ، ومنتصف النساء وأزياءهن في موضعه إن شاء الله .

والمسافة من الخلرا إلى قصر ابن صامل في قرية الحزم ١٤٧ كيلومتراً ، وحينما بدنا في الرزيزاء كانت درجة الحرارة ٦٠ بمقياس فهرنهايت ، وهبطت في الصباح المبكر إلى ٤٨ درجة .

الفصل السادس

وادي بيشة

على طريق بيشة - وادي بيشة وأقسامه - روافد بيشة -- قبائل بيشة -- في بيشة

١ - على طريق بيشة

سرنا من رنية ضحى يوم الجمعة الواقع في ١٧ شوال ١٣٥٢ (٢ فبراير سنة ١٩٣٤) بعد أن أخذنا كفاية سياراتنا من البنزين ، في طريق طويلة إلى جهة مرتفع الوادي حتى وصلنا قرى الضرم ، وهنا كان علينا اجتياز مجرى الشعيب الرملي ، وتخترق الطريق أعلى الضرم ثم تنساب جنوباً على محاذاة سلسلة من الجبال تمتد غرباً من الشمال إلى الجنوب ، وفيها قنن وهضاب مرتفعة تسمى على الترتيب : صولة - العوين - الحرشاء والحصان - والجماء . وإلى يسار المسافر سهل منبسطة ممتد إلى جهة قرية الروقة وما وراءها من جبال المسلوخ . وهضبة الجماء تقع بين «... الخثمي» وورك منيرة ، ويبعد الخثمي عن الضرم مسافة ٣٠ كيلومتراً إلى الجنوب .

والأرض التي تخترقها الطريق كما للتلال والهضاب أسماء لا أريد أن أتعب القارئ بذكرها ، بل أكتفي بذكر المهم البارز منها أو ما كانت له صفة خاصة كجبل (طيب الاسم) الذي يتألف من هضبتين تسمى إحداهما « حفير » والأخرى « شفير » . وبعد اجتياز هذا الجبل بمسافة بضعة كيلومترات يشاهد المرء أمامه وعلى يساره (شرقاً) عرقاً من الرمال البيضاء هو عرق (حنجران) الذي يبدأ في مكان اسمه « الحفرة » وهو ملتقى العرق الرملي والضلع الأسود .

ويرافق العرق الطريق مسافة أربعة كيلومترات ، ثم ينقطع بقرب « الحميمة » وهو هضبة سوداء تفصل الرمل عن السهل وتمتد من الطغيان على الطريق ، وهذه الهضبة فريدة في سوادها الفاحم الذي لا يشبهها فيه شيء مما يجاورها .

وحينما يصل المسافر إلى بئر الجاهلية يكون قد قطع من رنية مسافة ٥٦ كيلومتراً .
كان رفيقنا هذا اليوم رجلاً من أهل الضرم خبيراً بالأرض عارفاً بأسماء الجبال
والأودية ، فلم يترك شاردة ولا واردة . وقد ذكر لنا طرفاً من قصص أهل هذه البلاد
منها ما هو من قصص الزير وأبي زيد الملالي والسلطان حسن ، ومنها ما هو مقتبس
ومنسوب إلى رجال معاصرين .

وحينما سرنا من بئر الجاهلية اجتزنا بضعة كيلو مترات من الأرض السهلة المحاطة
بالجبال من بعيد ، وهي أرض يكثر فيها الظبي ، فصادفنا ثلاثة طاردها برهة حتى
اصطدنا أحدها . وقص علينا دليلنا طريقة صيد البدو للظباء قال : « إن البدوى
الماهر يأتي الظبي من الجهة المضادة لمهب الريح حتى لا يشعر الحيوان بريحه فيستنكرها
ويفر منه ، فإذا تلقت الظبي إلى ورائه ليشاهد هل هناك من يطارده وقف البدوى
في مكانه كأنه جماد مستقر ، فيطمئن الظبي ويشرع في الرعى ، فيتقدم الصياد البدوى
إذ ذاك مسافة أخرى ، فإن اتبته له الظبي توقف كأنه جماد لا يتحرك ، وهكذا دواليك
حتى يصبح على مسافة رمية منه فيرميه ببندقيته » . والبدوى مقتصد محتاط لا يسرف
في إطلاق الرصاص على طريده .

مشينا من أرض السليل إلى أرض العريض وطولها سبعة كيلومترات ، ثم دخلنا
أرض « جيم » وطولها كيلومتران ، ثم أرض الشميط ، ثم أرض الحاوى حيث
ضلع « منيظير » الذي قيلنا بجواره للفداء .

سرنا بعد الفداء كيلومترات قليلة فوصلنا أرض « دحلة العاز » ، ويقع إلى يمينها
ضلع صغير وإلى يسارها خشوم بنى رثمان ، والمسافة بين الضلعان اليمنى واليسرى
حوالى كيلومتر ونصف .

تدخل الطريق بعد ذلك في أرض النعام ثم أرض الحبل ، وهنا تضيق الفرجة
بين الجبال ، فتصبح الطريق هي مسيل الوادى المسمى بالسوادة إلى مسافة سبعة
كيلومترات ، ثم تصل إلى هضاب بنى رثمان ، وترى وراءها سلسلة جبال عظيمة

تسمى « الجفر » ، ثم تصل الطريق إلى أرض صعبة تشبه أرض الحرّة وتمتد مسافة ستة كيلومترات .

ذكرت أن دليلنا كان ظريفاً خبيراً ، فكنا نلتقط منه أقوالاً تدل على خفة الروح وتصوير الوقائع بالأمثال ، حينما اقتربنا من بيشة قال الدليل إنها بيشتان : بيشة القمح وهي علوّ الوادى فى بلاد قحطان وشهران ، وبيشة النخل المعروفة فى كتب العرب باسم بيشة عبّطان . ويتمثل البدو بغيرى بيشة بقولهم : « لو أن مع بيشة بيشة لسابت العيشة » يقصدون بذلك كثرة خيرات وادى بيشة وخصبه وغناه .

وأخبرنا الدليل أن ديرة سبيع تنتهى عند ضلعان بنى رنفان فى أرض الذهب ، وتبدأ من هنا ديرة أكّلب من قبائل بيشة .

تمرّ الطريق فى أراضي النَّفْخَة و بطن ذى خَشِي وأرض الشَّديدة التى يشاهد منها جبل « جُمُغور » وهو الدليل الذى يهتدى به فى الوصول إلى بيشة ، وجبل جمغور هذا كثير الشبه بجبل النور فى أعلى مكة من حيث شكله وارتفاعه وبروزه عن الجبال المجاورة له .

وكما قربنا من جمغور تغيرت طبيعة الأرض المسماة بأرض الحونة ، ثم يزيد هذا الاختلاف حين تنبسط أمامنا السهول المحتوية على شجر الحمض والغضى وشجر آخر أكبر من الغضى ما كنت شاهدته اسمه « تَنْضُب » . وهذه الأرض على كثرة شجرها وعرة كثيرة الحفر والأقواز الرملية والتعاريج ، ومنها يشاهد النخيل فى وادى بيشة فى متنوع رملىّ عظيم .

حينما يقترب المسافر من الوادى يكون قريباً من نخيل الجبرة فى أسفل وادى بيشة ، وتكون المسافة التى قطعها من رنية ١٦٨ كيلومتراً .

وبعد قرية الجبرة بمسافة نصف كيلومتر تقريباً تبدأ السيارة باجتياز الوادى الذى يبلغ عرضه فى هذا المكان أكثر من نصف كيلومتر ، ويمتد منتهى الرمل الواقع على ضفتيه مسافة أخرى بحيث يمكن اعتبار مجرى الوادى قرابة كيلومترين ، إلا أن

هذا لا يغطيّه الماء إلا نادراً حينما يكون السيل عظيماً جداً ، والغالب أن الوادى يتقسم هنا إلى مجريين شمالى وجنوبى ، وهذا هو السبب فى كون الحجرى عريضاً هذا العرض .

وصلنا قصر الحكومة فى قرية الروشن مركز بيشة بعد مسيرة ١٧٦ كيلومتراً من رنية .

٢ — وادى بيشة

ربما كان وادى بيشة أكبر الأودية الستة وأطولها ، فإنه ينبع من سفوح سراة عبيدة من قحطان إلى الشرق الجنوبى من جبال عسير ، وتجتمع فيه أكثر مياه جبال عسير وشهران وقحطان . قلنا أكثر لأن هناك وادياً آخر يصنف قسماً من مياه تلك البلاد وهو وادى تثليث .

يبدأ وادى بيشة كما ذكرنا من سراة عبيدة ورقيدة ، وكانت تقوم عند مبدئه قرية عظيمة لم يبق منها إلا أطلال وخرائب ، هى بلدة جرش الوارد ذكرها فى كثير من كتب العرب ، ثمّ يقطع هذا الوادى حدود بلاد قحطان حيث يكون اسمه « بيشة ابن سالم » أحد زعماء قحطان ، ويدخل فى ديرة قبيلة شهران ، ويعرّف من مكان تقوم على أطرافه قرى شهران ومنها خميس مشيط ، وبعد أن يجتازها بقليل تصبّ فيه أودية فرعية غير أنها غاية فى الكبر والأهمية ، منها وادى « تندحة » ووادى « أبها » المسمى « خبيبي » ، ويسمى عندئذ (أى بعد انصباب وادى أبها فيه) وادى « ابن هشبلى » أو وادى « شهران » . أما بعد أن يجتاز وادى بيشة بلاد شهران التابعة لابن مشيط وشهران التابعة لابن هشبلى عند المكان المسمى « واعر » والعتبر فى الواقع أول وادى بيشة ، فيسمى الوادى « بيشة النخل » أو « بيشة عبطان » المعروفة فى كتب العرب (١) .

(١) ذكر الأمير سعيد بن مشيط أن وادى بيشة يقسم ثلاثة أقسام : بيشة ابن سالم ، وبيشة ابن مشيط ، وبيشة النخل .

فالقسم المرتفع من الوادى إلى جهة منبعه لا يمكن زراعة النخيل فيه ، بل إن سكان تلك الأطراف يعتمدون فى حياتهم على زراعة الحبوب ، ولذلك سُمى « بيشة القمح » كما أسلفنا . واعتباراً من واعر يكون الإقليم معتدلاً وصالحاً لزراعة النخيل فيسمى الوادى عندئذ « بيشة النخل » . وسنذكر تفاصيل الأودية والشعبان التى تصب فى أعلى الوادى حين تفصيلنا لبلاد شهران وبلاد عسير وقحطان ، وسنكتفى هنا بذكر بيشة النخل .

تقوم على أطراف الوادى اعتباراً من واعر إحدى وعشرون قرية يتراوح عدد سكانها بين أربعين وخمسين ألف نسمة . وهذه أسماء القرى متبعين فى ذكرها مجرى الوادى من أعلاه إلى مصبه :

- | | |
|---|--|
| ١ — واعر | ١١ — الحَمَّة |
| ٢ — الحَيِّفَة | ١٢ — الحريرة |
| ٣ — المَدْرَة | ١٣ — الدَّحو |
| ٤ — الباقرة | ١٤ — الدِّيَامى |
| ٥ — نمران ، وهى محل سوق الخميس | ١٥ — السَّقِيْفَة |
| ٦ — الروشن ، وهى مركز الحكومة ومقر الأمير ومحل سوق الأربعاء | ١٦ — الدَّوَّار |
| ٧ — روشن المهدي | ١٧ — الرقِيْطَة |
| ٨ — النفيضة | ١٨ — النَّقْمِع |
| ٩ — أبا الشوك | ١٩ — الخرسعة |
| ١٠ — الصبيحى | ٢٠ — الشَّقِيْقَة |
| | ٢١ — الجنينة ، وهى منتهى العمران والنخيل . |

ويمتد الوادى فى مسيره إلى أن يلتقى بوادى رنية فى « رِغْوَة » ، ويفوران معاً فى « المَهْمَل » عند « ظَاعن » .

ويبلغ امتداد الوادى اعتباراً من « واعر » إلى « الجنينة » مسافة يومين ونصف على المطية أى ما يزيد على مائة كيلومتر ، وتبلغ المسافة من قرية « الروشن » فى بيشة إلى « خميس مشيط » ٢٥٠ كيلومتراً ، ومن الخميس إلى بلاد ابن سالم فى علو الوادى حوالى خمسين كيلومتراً . أما المسافة من « الروشن » إلى « الجنينة » فإنها تزيد على الخمسين كيلومتراً .

فيعكون طول الوادى من منبعه إلى مصبه ٣٥٠ كيلومتراً فى العمران ، وربما امتد أكثر من مائة كيلومتراً أخرى فى الرمال ، فيكون مجموع طوله فى هذه الحالة أكثر من ٤٥٠ كيلومتراً ، وهو طول عظيم جداً كما يرى ، والبداة يقولون : إنه يمتد من السعف إلى السعف^(١)

٣ — روافد بيشة

لن أذكر هنا من روافد بيشة إلا ما كان مصبه بعد « واعر » . وهذه الأودية التى ترفد الوادى ذات أهمية غير قليلة ، فففىها قرى عامرة بالسكان ، وكانت لبعضها شهرة عظيمة فى التاريخ . ومع أنى كنت متلهفاً إلى زيارتها فإن الظروف لم تكن لتسمح بذلك مع الأسف .

أولاً : وادى ترّج : ويصب فى بيشة عند نخيل الحيفة وفى الوادى نخيل ومزارع كثيرة ، وأهله شديدو البأس ، تمثل بهم الشاعر ابن مقبل حينما قال^(٢) :

جلوساً بها الشم العجاف كأنهم أسود بترج أو أسود بعثودا
وقال الحزازة العامرى^(٣) فى خصب ترج وغنى تربته :

وكان النخيل من بطن ترج وهى حوم حنّاس ظلماء
وقال أحمد بن عيسى الرداعى فى أرجوزة الحج^(٤) :

(١) السعف أعانى الجبال ، والسهف يكتنون به عن النخيل .

(٢) صفة جزيرة العرب للهمداني ص ٥٤ .

(٣) » » » » ص ٢١٥ .

(٤) » » » » ص ٢٧٥ .

ما زال ذلك حالها وحالها نفسى ظلام الليل والأهوال
حتى أتت ترجاً على أحمال وبيشة النخل بلا اغفال
أما قرى وادى ترَج اعتباراً من منبعه في سرة الحجاز إلى مصبه في وادى بيشة
عند نخيل الحيفة فهي : —

(١) القويسا (٢) جماح (٣) البهيم (٤) حوران (٥) النقرات
(٦) العريجة (٧) الحازمي (٨) البدير . والأخيرتان قرب الحيفة .
ثانياً : وادي تباله : ويصب في وادى بيشة عند قرية الصبيحي التي ذكرناها
بين قرى الوادى . والواقع أن الوادى المشار إليه يتغير اسمه قبل مصبه في وادى بيشة ،
فهو وادى تباله في أعلاه ووادى الشنيّة عند مصبه .

ووادى تباله هذا ملك لقبيلة الفرع من « خنعم » ويقال إنهم من « شمران »
وقد ورد ذكر الوادى كثيراً في كتب العرب وأراجيزهم . وقد قال فيه طرفة^(١) :
رأى منظراً منها بوادى تباله فكان عليه الزاد كالمقر أو أمر
وذكره عبد الله بن عبد الرحمن الأزدي في كلمته التي يذكر فيها افتراق الأزدي^(٢) :
فكلكم خيار الناس قدما وأجلدهم رجلاً بعد عاد
وأكثرهم شباباً في كهول كأسد تباله الشهب الورد
وورد ذكر تباله مع ترج وبيشة وهرجاب وقرى حوران وسواها في قصيدة
الحزاة العامري ، كما وردت في أرجوزة الحجج^(٣) لأحمد بن عيسى الرداعي
ولاحظنا أن بعض الشعراء ذكر أسد ترج وأسد عتود وأسد تباله . وقد يتبادر
إلى الذهن أنه كانت هناك أسد فيما مضى من الأزمان ، والواقع أنه لا أسد فيها .
ذكر الهمداني^(٤) تحت عنوان : مواضع الأسد في هذه الجزيرة المضروب بها
المثل ، قال :

(١) صفة جزيرة العرب للهمداني ص ١٧٣ .
(٢) » » » » ص ٢٠٦ — ٢٠٧ .
(٣) » » » » ص ٢١٤ و ٢١٥ و ٢٥٨ .
(٤) » » » » ص ١٢٧ .

أسد تباله وأسد ترّج وبيشة وأسد عتود . فأما تباله وترج وبيشة فهي من أعراض نجد ، ولا يكون بها أسد ولم يكن ، وإنما تريد العرب أسود بيش ويزيدون فيه الماء^(١) فيقولون بيشة بفتح الباء ، وهي مواضع الأسد « وبيشة بعطان » فهي بكسر الباء ، وقيل بل أرادوا بيشة نجد ، وأن رؤوس هذه الأعراض من أعلى السراة منها ما ينحدر إلى نجد ومنها ما ينحدر إلى تهامة ، فما انحدر إلى تهامة فالأسد فيه ولهذا الجوار نسبوها إلى هذه الأعراض ، وربما قد طلع منها الواحد إلى أرض نجد قاطماً من بلدة فعات فيها ، فاعل أول من نسب الأسد إلى هذه المواضع عين الواحد والزوج في بعض هذه الأودية .

وينسب إلى تباله بيت « ذو الخلصة » وهو من الأصنام التي كانت العرب تعظمها في جاهليتها^(٢) .

وهي واقعة على طريق الحج من صنعاء إلى مكة ، وفيها آبار عذبة ذكرها شعراء العرب وكتّابهم ، ولكنها في زماننا الحاضر بلاد فقيرة ، وفيها من القرى ١١ قرية منها : أربع لفرقة المصعبين من خثعم قبل أن يتغير اسم الوادي فيصبح « وادي الثنية » وهي : (١) السوّ (٢) الهضبة (٣) واسط (٤) القوز . وسبع في وادي الثنية وهي : (١) الجبارين (٢) القدنة (٣) الخرب (٤) خريب السوق (٥) مصر (٦) القوزية (٧) الشديق .

وأما سكان الوادي فهم كما ذكرنا من خثعم ، ويقسمون أربعة أقسام :

(١) المصعبين

(٣) البطّنين

(٢) بنو خناس

(٤) بنو واس

ثالثاً : وادي هرجاب من الأودية العظيمة في بلاد شهران ، وينبع من أعلى

السراة فيصفي مياه الأمطار في قسم كبير من بلاد شهران . ويقطعه طريق بيشة إلى

(١) وادي بيش في تهامة عسير .

(٢) انظر بحث ذو الخلصة في كتاب تاريخ مكة للأزرق طبعة مكة بتعليق الأستاذ رشدي مجلس

خميس مشيط في موضعين : الأول على بعد ٢٧ كيلومتراً من بيشة ، والثاني بعد ارتقاء الجبال قرب خير على بعد ١٣٣ كيلومتراً من بيشة . ويصب هرجاب في وادي بيشة بقرب الحيفة ، وليس على أطراف هذا الوادي سوى قريتين في السهل القريب من منبعه ، وهما قريتا الخضرا والماير .

رابعاً : وادي بطننة . وهو يصب في وادي بيشة فوق واعر بقليل ، ومنبعه من بلاد غامد .

٤ - قبائل بيشة

في بيشة عدد من القبائل المتحالفة نذكرها فيما يلي :
أولاً : قبيلة أكّاب . ويبلغ عدد محاربيها نحو ألف رجل وتقسم إلى بطنين :
الأول : عاصر . وفيه من الأقسام خمسة : المزايذة ، الجنبية ، الجبيرة ، آل منيع ، ابن عطبان .

والثاني : المخالف . وفيه من الأقسام أربعة : بنو هزر ، آل سحرة ، بنو سعد ، الجياهيين .

ثانياً : قبيلة شهران . هؤلاء هم قسم من شهران الذين تمتد بلادهم على أطراف وادي بيشة من منبعه إلى مصبه ، وهم كثير والعدد والعدة ، وأقسامهم ستة : بنو واهب ، بنو منبّه ، الحلف ، الرّمثين ، الحنارشة ، آل السّند .

وبمناسبة ذكر شهران لانرى بأساً من ذكر أقسامها الرئيسية التسعة التابعة لعسير (أى بلاد ابن هشيل وابن مشيط) وهى :

(١) آل رُشيد . وكبيرهم : ابن مشيط وأبو ملححة

(٢) آل غمر .

(٣) نَاهِس . وفيهم خمس بدائد : بنو على ، المزارقة ، بنو صغير ،

آل الذئب ، حويز .

(٤) كَوْد .

(٥) بنو بِنَاد .

(٦) بنو واهب .

(٧) آل سرحان .

(٨) بنو رشحة .

(٩) آل ينفع .

ويتبع شهران في الشعف : بنو مالك (أَبْنُو مَالِك) ، والقربا ، وابن بِنَابرة ،
والمسقى . كما يتبعهم في تهامة فرع الجهرة .

أما القرى التابعة لسكافة شهران فسندكرها في موضع آخر .

ثالثاً : قبيلة بلحرت^(١) قريبة من وادي تَرْج ، وتقسم قسمين :

الأول : الحشارمة ، ومنهم أربع بدائد : العُرمة ، آل الصَّمّة ، الشَّحوف ،

آل عيسى .

والثاني : آل خالد ، ومنهم سبع بدائد : الحُرشة ، الحُرمة ، القملة ، البطلان ،

آل الربيع ، الحراملة ، آل مرير .

رابعاً : قبيلة خثعم . هم أهل قرى ومزارع ، ويقسدون إلى فرق أهمها :

بنو ميمون ، ابن عيدان ، أهل دِمّة ، أهل باشوت ، آل مرّة ، السروان ،

المزارقة ، السلمان .

ومن خثعم أقسام في تهامة هي : المنتشر ، العوامر ، بنو سبهم .

كنت دوّنت هذه المعلومات عن خثعم في رحلتى إلى «أبها» ، وكانت هذه

القبيلة تابعة آنئذ لإمارة بيشة ، ولـكـنـها أتبعـت منذ نحو سنتين إلى إمارة سراة

الحجاز المسماة بغامد وزهران ، فـكـتـب أميرها تركي بن ماضي عن أقسامها ما يأتي :

الحضر من «خثعم» هم :

(١) هم من الشلاوة . وتوجد قبيلة أخرى باسم بلحرت ذكرناها في كتابنا «قلب جزيرة

العرب» ص ١٣٨ . وبعضهم يخلط بين القبيلتين .

- (١) بنو ميمون
- (٢) أهل الفوقة
- (٣) أهل الهطبة .

وأما البادية فهم :

- (١) بنو داس
- (٢) الفزع .

خامساً : قبيلة بالقرن . هم أهل قري ما عدا الصهب من دحسيم فإنهم على البداوة ، وأقسامها ستة : دحيم ، آل مشيب ، بنو رزق ، آل سليمان ، آل الحميد ، آل كثير .

سادساً : قبيلة شمran . منها فرق تقيم في تهامة ، غير أن لها أقساما في ديار بيشة هي : العبوس ، سحاب ، آل مبارك .

٥ — في بيشة

أقننا في بيشة يوماً وبعض اليوم ، وتجولنا في أطرافها ، وزرنا بعض أعيانها ، ودرسنا أحوالها ، وجمعنا ما يلزمنا من معلومات وأرصاد عنها . وبيشة — بموقعها الطبيعي وخصب تربتها وتنوع إقليمها وكونها متوسطة بين عسير والحجاز والدواسر ونجد — ذات أهمية من الناحيتين الاستراتيجية والمواصلات . وقد كانت دائماً مركزاً هاماً للحشد العسكري الذي يساق من نجد إلى جهات عسير واليمن . وقد لعبت دوراً عظيماً في بلاد شمran وعسير أوائل زحف حركة الإخوان من نجد . وكان الغزو الأول الذي توجه بقيادة الأمير « ابن مساعد » لفتح عسير مؤلفاً من أهل بيشة علاوة على أهل نجد .

ويبلغ سكان وادي بيشة نحو ستين ألفاً . والجهاد المفروض عليهم في الدرجة الأولى يبلغ ١٥٠٠ مقاتل .

وأما درجة الحرارة يوم مرورنا منها فكانت ٧٤ درجة فهرنهايت عصرًا و٧٠

درجة فهرنهايت صباحاً ، وتشتد درجة الحرارة في أيام الصيف اشتداداً عظيماً ، ولولا ذلك لما كانت زراعة النخيل فيها موفقة ناجحة . وقد قلت مياه الآبار بسبب عدم فيضان الوادي منذ سنوات . أما السنين التي تكثرت فيها الأمطار ويجري فيها الوادي تبعاً لذلك فإنها تكون سنين خير وبركة .

والصناعات في بيشة بدائية ، وما هي إلا دبغ الجلود وصنع سرج الخيل والإبل ونسج النسيج الصوفي الجاف الخشن ، مما يستعمل في صنع الأبسطة أو الأخرجة . والبيوت في بيشة تؤلف عادة من طبقتين ، وتحاط بأسوار في منتصفها أبواب كبيرة تتسع لدخول الجمال بأحمالها . وقد شاهدنا بعض البيوت الكبيرة ذات الجدران المرتفعة تحترق سقوفها كوى لتصريف الدخان ، إذ أن النار توقد وسط البيوت للتدفئة وعمل التهوية والشاي .

أما طراز المعيشة في بيشة فقد تحول تحولاً محسوساً واختلاف عما عهدناه في الحجاز وفي بادية الطائف . ومع أن العادات قريبة من عادات أهل نجد غير أنها لا تتفق معها تماماً ، كما أنها لا تشبه عادات عسير وشهران التي سنوضحها في الفصول الآتية . شرب الشاي والتهوية ثم تقديم المَجْمَر يحترق فيه عود اللّسد أو خشبة الإذخر التي تكثرت في البرية قاعدة عامة شاملة ، ويزيد أهل بيشة على ذلك تقديم النواشف من التمر وغيره للضيوف الممتازين . وهذا التفرد في العادات ناشئ على الأكثر من وقوع بيشة على طريق القوافل الرئيسية التاريخية في جزيرة العرب ، فهي مانتقى هذه الطرق أو الحاج المتجهة من اليمن وحضرموت وعمان ووادي الدواسر وعسير والحجاز ونجد . وفي القديم عرفت بيشة بأنها المعبر الذي دخل منه الأحباش في طريقهم إلى مكة عام الفيل . وتوجد بالقرب من بيشة كتابة باللغة الحميرية القديمة تشبه الكتابة المنقوشة على صخرة في ربع الزلالة بقرب السيل بالحجاز بينها وبين السيل الصغير على طريق الطائف للجمال . وقد جرت العادة بتسمية درب الجيش الحبشي بدرب الفيل ، لأن القبيلة والجمال معاً تعجز عن سلوك طريق السراة فتنتركاها إلى الغرب وتسير في الطريق الشرقي السهل الذي يمر من بيشة .

ترودنا من « بيشة » بالبنزين اللازم لسياراتنا ، وهي المحطة الأخيرة قبل خميس مشيط . وقدم لنا الأمير دليلاً من رجاله من شهران ، خبيراً بالطريق والأرض والجبال والقبائل ، لمرافقتنا إلى الخميس .

وقبل مسيرنا وقعت لرفيقنا المهندس « كنعان » قصة مسلية ، مازلنا نلمز به إلى يومنا هذا : انتهى كنعان كلوة الذبيحة . وأهل بيشة لا يبذلون كبير عناية في طهو الخراف ، وكانت النتيجة أن تناول كنعان قطعة من الذبيحة لا يجوز أكلها ظناً منه أنها الكلوة ، فكانت فرصة للرفاق يتساون فيها بمشا كسة كنعان وتعييره .

الفصل السابع

بلاد شمران

في طريق الخميس - بلاد خيبر - بين خيبر وتندحة - وادي تندحة - خميس مشيط
الأسواق الأسبوعية - قرى الوادي - السفور والزواج

١ - في طريق خميس مشيط

غادرنا قصر الروشن ، دار الحكومة في بيشة ، صباح يوم السبت الواقع في ١٨
شوال ١٣٥٢ (٣ فبراير ١٩٣٤) ، وخالفنا سوق « شمران » عن يميننا ، واتجهنا نحو
الجنوب تنهب بنا السيارات الأرض منها . وبعد مسيرة ثلاثة كيلومترات وصلنا إلى
ضلع اسمه « قرن الحديد » سرنا منه كيلومترين آخرين ، وكنا نشاهد من ورائه
جبال « الشهبلاء » . ثم دخلنا في أرض اسمها « المتن » يطل عليها « أبرق المنقاد »
وفي مؤخرته ضلع « العيرة البيضاء » فالجرا . وأرض « المتن » هذه سهلة رملية
تجانبا الجبال من شرقها وغربها ، وعرضها حوالي ثلاثة كيلومترات ، وسرنا فيها
من الشمال إلى الجنوب مسافة ١٤ كيلومتراً . وكنا كلما اتجهنا إلى الجنوب ضاقت
بنا الفرجة بين الجبال وتشعثت بما يكثر فيها من الشجر ، حتى نصل إلى ضامعات
صغيرة تنسع بعدها الأرض مرة أخرى وتقوم إلى يمينها (غربها) سلسلة « لبت »
ومن دونها « جرياش » ومن ورائها « غرابة » . ويكون إلى جهة المشرق في الأفق
« اللب » و « القران » وهضاب « بنى منبّه » .

وبعد اجتيازنا لأرض المتن دخلنا أرض « الحبوب » ، نباتها السم ، وطيتها
رخوة رخصة ، تفرز فيها السيارات ، يخترقها وادي « هرجاب » عند جبل « مرياش »
الذي يقوم كالحارس الرقيب على الوادي العظيم .
وبعد أرض الحبوب تأتي أرض « الحزبة » التي يرافقها « مرياش » من

غر بيها برهة قصيرة، ثم ينتهي « مرياش » قبل أن تبلغ شعيبا اسمه شعيب « رنوم » على بعد حوالي كيلومترين ونصف متر .

ويشاهد المسافر من وسط أرض الحزّة سلسلة من الجبال إلى جهة الغرب تعرف باسم « الشراة » ، وهي السلسلة الموازية لسراة الحجاز وعدير المرتفعة . والجبال في هذه المنطقة كثيرة ، بذل دليلنا جهده لتسميتها لنا وتمريفنا بحدودها من مبتدأها إلى منتهاها ، غير أنى لن أتعب القارىء بذكرها هنا .

وبعد مسيرة ثلاثة كيلومترات من رنوم تبدأ أرض جديدة ، سماها الدليل باسم « صهبي » وهي مجرى واد محصور بين جبال الشراة ، من الغرب وضلمان وهضاب مختلفة من الشرق ، وبعد أن نسير فيها مسافة كيلومترين نصل إلى الشعيب المسمى باسمها وترافقه على ضفتيه مسافة غير قصيرة . وقد شجبت أرض صهبي هذه بطريق مكة — الطائف من حيث وعورتها وكونها في واد يرتفع كلما تقدمنا فيه ، إلى أن نصل بعد مسيرة خمسة كيلومترات إلى عقبة نرقاها ونتحول منها إلى أرض مستوية مسافة كيلومتر واحد ، ثم نهتلى عقبة أخرى . ويستغرق قطع أرض صهبي من أولها إلى آخرها مسيرة عشرة كيلومترات ، حيث نفارق شعيب صهبي ونسير في واد آخر اسمه « وادي الميثاء » وهو ذو رمل أبيض خال من الحجارة والصخور . وتشبه الأرض هنا طبيعة الأرض الواقعة بين السيل والربع الكبير (ذات عرق) على طريق مكة — الطائف .

ندخل بعد ذلك أرض « جلالة » . وهي سهب مرتفع ، بقربه تلال وركام صخرية كالحرار ، وبعد أن نسير فيها خمسة كيلومترات نصل إلى مكان يسمى « هضبة البئر » التي يمر بقربها شعيب جلالة . وبعد مسيرة كيلومترين ونصف متر عن الشعيب المذكور نصل إلى بئر غزيرة المياه ، عمقها سبعة أمتار ، تجاورها صخور ملساء ، نقشت عليها نقوش كثيرة ، قد يخالها المرء ككتابة هيروغليفية أو حيرية ، غير أنها في الواقع أوسام الإبل وأوسام أخرى لامعنى لها ، وهذه البئر اسمها « بئر ابن سرار »

وبعد كيلومترين من البئر تقطع شعبياً اسمه « تلاح » ، ثم ندخل في أرض « الحدبة » التي تبدأ على بعد مسافة ستة كيلومترات من البئر ، وهي أرض محاطة بهضاب حجرية ملساء اسمها « الصمغ » وهي بطبيعتها مشابهة لأرض « الجنامية » و « الجديرة » بين « الربيع » و « أم الحمض » على طريق الطائف . وتشاهد من هذه الأرض هضاب متعددة مثل : نجرة ، وحقايلة ، وثعدة ، الواقعة بقرب قرية : الهيار ، على وادي « هرجاب » . وترى أيضاً أبارق العالة ، ورفضة ، والحصير ، وسيقان ، والسندب . ذات اللون الأبيض الناصع الذي يميزها عما حولها من هضاب ومرتفعات ، وتمتد أرض الحدبة إلى مسافة ١٢ كيلومترا .

وتبدأ بعد ذلك أرض « السرين » ، السوداء اللون ، الممتدة إلى مسافة تسعة كيلومترات .

ثم تأتي بعد ذلك « كتنة » وهي أرض وواد مشهور في كتب العرب ، تمشي السيارة فيه من أسفل إلى جهة منبعه عشرين كيلومتراً في ملتويات ومنحنيات تحيط بها الجبال من كل جانب ، وتقوم على أطراف وادي كتنة جبال مشهورة مثل ضلع « قرن الوشيل » وضلع « ربة » و « ابن سرار » . والسير في الوادي يكون صعباً حتى نصل إلى ضور بنى منبته ، لأن الطريق صعد . وضور بنى منبه ضلع صخري أملس يقع على يمين الصاعد على الطريق ، ويمتد إلى مسافة كيلو مترين . وحين مفارقة الضور نصل إلى عقبة صعبة المرتقى عسيرته ، ولـكنا رقيناها بدون أى حادث ، وحوّلنا السير من جهتها الجنوبية الغربية إلى « وادي قرن الوشيل » ، فنضطر إلى ارتقاء عقبة ثانية ، ثم بعد كيلومتر آخر عقبة ثالثة غير أنها أقل انحداراً من الأولى

دخلنا بعد ذلك أرض « الخلائل » التي بلغ ارتفاعها أعظم ما وصلنا إليه حتى الآن في الرحلة ، إذ سجل البارومتر هنا علواً قدره ٧١٠٠ قدم . وأما أرض الخلائل فإنها سهلة كثيرة العشب والمرعى ، قد يتخذها بنو واهب من شهران حمى لمواشيهم ، وتقوم إلى شرقها سلسلة « الحصاصة » . وقد شاهدنا في هذه المنطقة رتلا من الغطاء

طاردناها فلبجأت إلى الجبال الصخرية فلم نتمكن منها . وأذكر أننا في عودتنا شاهدنا فيها نوعاً من الحبارى النجدية صدنا بعضها . وتمتد أرض الخلائل مسافة ١٩ كيلومتراً ثم نبدأ بالتصعيد مسافة كيلومترين حيث تطل على مجرى وادي «هرجاب» الذي قطعنا قسمه الأسفل في الصباح . وكانت الشمس قد قارت بت الغيب ، والسيارات الصغيرة لم تكن قد لحقت بنا ، فقررنا المبيت في هذا المكان .

حياة البرية لذيذة مبهجة ، لاسيما متى كان المسافر مستعداً لها أو معتاداً إليها . وكانت معيشتنا في سفرنا الحالى سائرة على وتيرة واحدة من الترتيب والنظام ، غير أننا — بسبب ميبتنا ثلاث ليال في انحرما ورنية وبيشة — لم نتمكن من الاستمتاع بحياة البرية الهادئة إلا ليلة «ميبتنا في «هرجاب» . نصب الرفاق الخيام ، وأرسلوا الدليل في مشرتى ذبيحة لعشائهم ، وانتشراً كثرهم يجمع الحطب استعداداً لهذه الليلة الباردة المقمرة ، وسمرنا إلى ساعة متأخرة من الليل مع ضيوف جمعتهم نار القري ، فكنا نسمع أحاديث القحطاني والشمراني والعسيري والنجدي والحجازي ، وامتزجت النفوس وطاب السهر ، فهب الرفاق إلى جذوع أشجار ضخمة فاقتلموها وجروها ، مقلدين بذلك فعلة الأمير فيصل ليلة الربوة في أرض «الجديرة» .

أفتقنا في الصباح نشطين أقوياء ، فرفعنا متاعنا ، وانسابت بنا سيارتنا تاركة وادي «هرجاب» إلى الشمال الغربي حتى دخلنا أرض «الخصاصة» التي تفصل بين مجرى «هرجاب» ومجرى وادي «أنط» الذي يصب في هرجاب أيضا .

وبعد مسيرة ١٥ كيلومترا من هرجاب تفارق وادي أنط وتدخل في أرض النمر وهي سهلة في مبتداها ، وتقع إلى الغرب منها ضلعان «الشفنا» . ومما يلاحظ أن شعيب «نمر» يصب في وادي «المسيرق» الذي يصب بدوره في وادي «تثليث» . ونسير في أرض النمر مسافة طويلة ، نقطع تارة شعيب نمر نفسه ، أو الشعبان الصغيرة التي تصب فيه ، ولا تكاد تنتهي من أرض النمر حتى تشاهد في الأفق إلى جهة اليسار نخيل بلاد خيبر وقصورها .

٢ - بلاد خيبر

حينما سمعت بخيبر عجبت من التسمية ، لأنى كنت أجهل أن هنالك خيبراً غير خيبر المشهورة بوقعتها التاريخية في صدر الإسلام والواقعة إلى الشمال الشرقى من المدينة المنورة ، ولكن خيبر شهران قد تكون أكبر من بلاد خيبر المدينة ، وأعدل هواء وأعذب ماء . وأرض خيبر هذه فيها رجوم وركام من الصخور السوداء ، وفيها شهبان وأودية كبيرة ، إلا أن أكبرها شبيب « السليل » ، وأعظم منه شعيب خيبر الذى يرفد شعيب المسيرق الآنف الذكر .

وتقوم بالقرب من خيبر عدة جبال أهمها جبل « شاع »^(١) إلى الجنوب الشرقى منها . وتجتمع مياه الأمطار التى تهطل عليه وعلى جواره فى الوادى الذى يجتمع فى أول بيوت وادى خيبر مع وادى « الشيق » القادم من جهة الجنوب . وبعد أن يجتاز الوديان خيبر يتصل بهما المسيرق ، ويظل اسمه هكذا إلى أن يصب فى وادى « ثفن » بقرب الحراض . وثفن نفسه يصب فى وادى تثلث الذى سنصفه ونذكر روافده فى موضع آخر من هذا الكتاب .

أما بلاد خيبر فإن أهلها من شهران ، إما من كؤد وإما من بنى واهب . وهى عدة قرى ممتدة على طرفى وادى خيبر والشيق والمسيرق . والبيوت هنا (وتسمى القصور) مبنية بالابن وهى كأحواش واسعة ، فى أحد أطرافها البيت الذى يشبه البرج ، ويتألف على الغالب من طبقتين ، يستعمل الأذننى أيام الأمطار فى فصل الشتاء ويضم المواشى من بقر وماعز وغنم ، ويستعمل الأعلى فى فصل الصيف لخزن المون ، ولكن الغرض الرئيسى منه أن يستخدم للحرب ومراقبة العدو ومقاومته .

ومما يؤسف له أن انعدام الأمن فى هذه البلاد قبل ولاية الملك عبد العزيز آل سعود جعل السلامة الشغل الشاغل لأهل هذه البلاد وما جاورها ، ولذلك تراهم

(١) صفة جزيرة العرب للهمداني .

قد جهزوا بيوتهم بوسائل الدفاع ، وكذلك فسلوا بمزارعهم التي يبنون فيها القصبات الشبيهة بالمنائر فيها مخاريق لرمى العدو وصدده .

أما القرى في وادي خيبر فهي :

(١) رِغْوَة : في أعلى الوادي ، أكثرها مزارع للحبوب ، وفيها قليل من النخيل .
وأهلها من كؤود من شهران .

(٢) البَرْدان : وتأتي بعد رِغْوَة . وأهلها من الصوح من شهران .

(٣) العَمَّار : وهي للصوح أيضا .

(٤) خيبر : وهي لآل خُزام من بني واهب ، وهي أحضر من العمار ، وفيها نحو عشرين قصراً .

(٥) واسط : وقصورها عشرة .

(٦) العمار : وهي غير الأولى واسمها الحقيقي عمار بن بجاد وفيها عشرون قصراً .

(٧) الحامض : وفيها نخيل ، وقصورها عشرة .

(٨) القفاض : بها عشرة قصور .

(٩) المباريش : أكبر من السابقة .

(١٠) الحنفة .

(١١) القوز : وهي بلاد لابن دليقم .

(١٢) البعث .

(١٣) الحرفين : وفيها عشرة قصور .

وأهم زراعاتهم البرّ والشعير والذرة والنخيل .

ومما يلاحظ أنني لم أشاهد نخلا بعد خيبر من جهة الخميس وعسير ، فكأنها

الحدود التي ينتهي عندها زرع النخيل .

٣ — بين خيبر وتندوحة

بعد مسير بضع مئات من الأمتار عن قصور خيبر، اجتزنا شجري الوادي، وسرنا محاذين لجبل « شاع » الذي أصبح الآن عن يسارنا على بعد قليل منا، وكنا كلما تقدّمنا في السير اقتربنا من الجبل حتى السير على سفحه، وأصبح السهل ممتداً إلى جهة اليمين حتى مسافة ثلاثة كيلومترات تقريباً، وهناك تبدأ سلسلة من الجبال الحمراء تسمى « سلسلة الشميطة » .

أما أرض الوادي فإنها من التراب الأسود الناعم، ويكثر فيها شجر العراد، وبعد مسيرة عشرة كيلومترات تضيق أرض الوادي، وتبدأ السلسلتان اليمنى واليسرى بالاقتراب حتى يبلغ البعد بينهما أقل من ٥٠٠ متر، وعندئذ نصل إلى مجرى وادي السليل الذي يصب في خيبر، وفي هذا المكان يتقطع جبل « شاع » ويبدأ المسير على سفح سلسلة جبلية واقعة على يمين الطريق .

تضيق الجبال الخناق على الطريق وتنفرج عنه مرة أخرى، وهي تنساب على جانبي وادي السليل أو على أحد جانبيه أو قاطعة له، ولكنها تتعرج مصعدة مع علو الوادي إلى مسافة بضعة كيلومترات، حتى تبلغ ارتفاعاً سجّله البارومتر بمقدار ٧٧٥٠ قدماً .

ننتهي من أرض جبلية إلى أرض رملية، ونسكننا نعود بعد كيلو مترين إلى المنطقة الجبلية حيث رقى عقبة يكون الارتفاع عندها ٨٠٠٠ قدم، وتسمى الأرض التي وصفناها بأرض السليل نظراً لأن السليل يصفى مياهها وينساب فيها. ونسير بعد هذه العقبة قليلاً فنقطع عقبة أخرى دونها في الارتفاع، ومنها تبدأ أرض اسمها « هضبة الأشواط » وبقربها ضلع منفرد اسمه « قرن » . ومن هنا تتغير استقامة الطريق فتصبح مائلة إلى الجنوب الغربي تماماً، وتترك « قرن » على يميننا بعد أن نكون سائرين في استقامته، وتصبح استقامة الطريق جنوبية تماماً .

نجتاز بعد ذلك شعبياً على بعد نحو كيلومتر واحد من قرن اسمه «شعيب ثقيف» ثم نرقى عقبة يكون الارتفاع فيها ٨١٠٠ قدم . وحينما نجتاز كيلومترين آخرين نصل إلى أعلى الهضاب المقابلة لنا ويكون الارتفاع عندئذ قد بلغ ٨٤٠٠ قدم . ومما لاحظته أن هذه الهضاب هي الخط الفاصل لتقسيم المياه ، فإننا بعد أن بلغنا أعلاها شرعنا في الانحدار إلى جهة الغرب حيث تنصفي المياه إلى جهة وادي تندحة . وبعد مسيرة نحو كيلومترين قطعنا شعبياً صغيراً ثم قطعناه مرة أخرى بعد نصف كيلومتر في مكان تكثر فيه الحسيان و بعض شجيرات النخيل والدوم . ثم يتلوى الطريق بين رجوم وركام صخرية يعسر المرور من بينها وتسير السيارة كأنها محشورة بين قالبين من الصخر الأصم . وهذه القطعة من الطريق من أشق وأعسر ما رأينا ، وقد اجتزنا بين هذه الصخور والركام الصخرية مضيقاً يكاد عرضه لا يزيد عن عرض السيارة بكثير وطوله يزيد عن مائة متر ، ولكننا ما نكاد نفارق هذا المضيق العسير ونرقى أعلى العقبة من الجهة الجنوبية الغربية حتى نشاهد منظاراً بديعاً في الوادي المنبسط أمامنا ، هو منظر وادي تندحة وقراء الخضراء .

٤ — وادي تندحة

يحبس وادي تندحة من أهم روافد وادي بيشة حينما يكون اسمه وادي شهران أو بيشة ابن مشيط ، وهو يصفي السفوح الغربية للهضاب والآكام التي تفصل بين مجرى وادي بيشة ومجرى تثليث . وقد رأينا أن الشعبان التي اجتزناها في طريقنا كانت متجهة إما إلى ناحية وادي بيشة (أنط وكتنة وهرجاب وتندحة) وإما إلى ناحية وادي تثليث (وادي السليل والمسيرق وخيبر) ، وعلى ذلك فإن وادي تندحة هو الوادي الثاني الذي يرفد وادي بيشة .

يتمد الوادي من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي في منحنيات وتعاريج شديدة الميل إلى أن يصب في وادي شهران في مكان اسمه « الغرياء » بقرب بلاد

ابن هشبل ، ويبلغ طوله من منبعه إلى مصبه حوالي ٨٠ كيلومترا ، ويكون مجراه ضيقاً شديداً الانحدار في بعض المواضع ، كما أنه ينفسح وينبسط في مواضع أخرى ، ويشاهد على أطرافه أرض خضراء جميلة جداً .

وحينما قطعناه وجدنا في مجراه الماء جارياً ، وقد أخبروني بأن ماءه لا ينقطع إلا في أشد السنوات قيظاً بخلاف سائر الأودية التي اجتزناها . نعم إن كثيراً من هذه الأودية توجد فيها « غيول » أي مواضع عميقة يابغ ماء الوادي منها ويؤلف بركة ماء واسعة ثم يغور مرة أخرى تحت الأرض فإن نبش عليه قليلاً ظهر الماء وجرى . وأكثر مجاري أودية عسير وجبال تهامة عسير فيها من هذه الغيول ذات الماء الملوثة والهوام السكنيرة والجراثيم والآثار المرزغية .

وتقوم على أطراف الوادي قرى عامرة ترى إحداها من الأخرى رأى العين . وهي صفة لم أشاهدها إلا في أودية عسير وبلاد شهران وقحطان . وقد ذكر لي بعض الذين سافروا بطريق السراة من الطائف إلى اليمن أن المسافر لا يفارق نظره القرى والقصور في انتقاله من مكان إلى آخر .

أما قرى وادي تندحة اعتباراً من منبعه إلى مصبه فهي :

- | | |
|----------------|-----------------------|
| (١) أهل النديب | (٨) أهل الدر |
| (٢) العجير | (٩) آل ذبابة |
| (٣) ابن سامة | (١٠) آل بُوذبان |
| (٤) المزارقة | (١١) آل العطف |
| (٥) آل الحجاج | (١٢) آل عيَّاش |
| (٦) آل مستنير | (١٣) آل الشُعَيْثَاء |
| (٧) أهل الزلال | (١٤) آل سويد الحوطة . |

ولأهل هذا الوادي سوق يومه يوم الأحد ، يجتمعون فيه مع كثير من أهل القرى المجاورة لواديهم ، ويتبادلون فيه بيع السلع والأمتعة . وهذه العادة أي عادة

الأسواق الدورية الأسبوعية فاشية فيما كان إلى جنوبي الحجاز من البلدان ، حتى إن القبيلة الواحدة قد يكون لها أسواق على عدد أيام الأسبوع يتنقلون فيها من سوق إلى آخر كما سنبينه في موضع آخر .

ولم نمكث في تندحة إاريثا جمعنا ما أردنا من معلومات وأرصاد ، وسرنا مسافة ستة كيلومترات ، فانفرج السهل أمامنا ، ووصلنا إلى شعيب الأرض المسماة بالشرف بعد سبعة كيلومترات تقريباً ، ثم مشينا قليلاً فأشرفنا من أعلى الهضاب على مجرى وادي الخميس « خميس مشيط » .

٥ - خميس مشيط

كانت في ذهني صورة للخميس لم أجدها مطابقة للأصل حينما بلغتها . سمعت بالخميس منذ سنوات ، وتصورتها مدينة كبيرة فسيحة الأرجاء واسعة العمران معتدلة الإقليم ، لأنها كانت تتخذ مركزاً للمسكرات كلما حصل النفير إلى جهة الحدود اليمنية أو إلى جهة تهامة ، فحينما وصلتهم لم يحقّي الخبّر الخبّر ، نعم وجدتها معتدلة الهواء قائمة في سهل منبسط تبعد عنه الجبال مسافات كافية ، ولكنني لم أجدها المدينة العظيمة ، المدينة التي رسمها الخيال في ذاكرتي .

حينما أشرفنا على وادي الخميس من الهضاب الشرقية أصيل يوم الأحد الواقع في ١٩ شوال ١٣٥٢ (٤ فبراير ١٩٣٤) كان أول ما لفت نظري الخيام البيضاء المنتشرة في أطراف الوادي وفي جنبات السهل المنبسط ، وحركة الجيش وتنقلات جند الإخوان ، وما يلازم المسكرات من حركات عسكرية أو قوافل مؤن وذخائر أو سيارات غادية راحة ، كما استرعى انتباهي شكل جديد للبيوت لم أشاهده من قبل . وقد انساب الوادي في السهل كالثعبان يتلوى من حمارة القيظ ، وقد رُصّعت جنبات الوادي بالقرى المتصلة حتى كأنها تشبه قرية واحدة ذات حلل منتشرة هنا وهناك .

أما بلدة الخميس فقريه اسمها الحقيقي « الدرب » ، وتسمى الخميس لأن السوق الأسبوعي يفتقد فيها يوم الخميس . ويضاف السوق إلى أمير شهران : ابن مشيط من آل رشيد ، فيقال للقرية « سوق خميس مشيط » ، ويضيق اسمها الأصلي « الدرب » فلا يعالنه إلا أهلها .

بعد وصولي إلى الخميس فهت السرفى اختيارها مقراً للمسكرات الحربية ، ذلك أن « أبها » وإن كانت أكبر منها وأقرب إلى الحدود اليمنية وتباعدة فإنها محصورة بين الجبال ، ولا توجد فيها النلاة لرعى الإبل ، وكذلك ليس فيها متسع لحركات جيش كبير . ووجدت أن ولى المهدي قد اختار الإقامة فى مخيم نصب على أطراف الوادى على سكنى بيوت القرية وقصورها .

بيوت القرية ، بل بيوت سائر القرى فى بلاد شهران ، متشابهة . حينما أشرفت من أعلى « الخميس » على المسكر والقرى المجاورة له ، رأيت من أسر البيوت عجبا ! البيوت فى هذه البلاد تسمى قصوراً أو حصوناً ، وهى فى الواقع كذلك . جدار مرتفع يحيط بمساحة واسعة من الأرض بحسب قدرة صاحب البيت وسعته . وقد قامت فى طرف منه أو أكثر أبراج بعضها مفتول له مزارق ومرايع للدفاع وقت الحصار . وقد قام فى جانب آخر برج مربع هرمى الشكل تقريبا ، قاعدته متسعة ، ثم تضيق كلما ارتفعت الطبقات إلى أن تنتهى بحرف علوى مسنن ؛ يجعل للقصر منظراً جميلاً ، ويظهر القصر بحملته كبناء فرعونى على الطراز الحديث له نوافذ ضيقة لا تتسع لمرور شخص متوسط الجسم . أما طبقات القصر فقد تكون اثنتين أو ثلاثاً أحياناً وتكون أربعا فى النادر . ومعدات البناء بأكلها وطنية محمية . اللبن النيء يصنع من تربة الوادى ، والسقوف وجميع الأقسام الخشبية فى القصر تصنع من خشب الأثل الحلى الموجود بكثرة . وقد شاهدت عجبا فى أدراج سلم القصر المنسجمة مع شكله الهرمى ، فإنها متسعة فى أسفل العمارة ثم تضيق كلما ضاقت مساحة البناء فى الطبقات العليا حتى تصبح دون المتر عرضاً فى الطبقة الأخيرة .

ويتجلى في شكل العارة هنا فرق آخر لمسنا طرفاً خفيفاً منه في بيشة ، وهو الاهتمام بزينة المنازل من داخلها ؛ فإن أكثر الجدران وأرضية الغرف وأدراج السلم تلون بالأصباغ النباتية المحلية غالباً ، ولكن أجمل الأصباغ التي رأيتها هي اللون الأخضر الحشيشي الذي يؤخذ من عصارة البرسيم . شاهدت النساء يطلين بيوتهن من الداخل بهذه الأصباغ المبهجة ، ودققت في طريقتين متبعتين في هذا الفن ، رأيت إمتاع قرأى بوصفه ما .

تنقى كمية من التراب الرسوبي ، وتمزج بكمية قليلة من القش المسحوق (التبن أو ما يماثله) وترش بالماء إلى أن تنتشر تشرباً معتدلاً ، ثم تدعك الكتلة دعكاً قويا ، وتفرش على الأماكن المقصود إصلاحها وتسوى بالأيدي (وألاحظ أنني لم أشاهد في شهران ، أو في عسير ، أو حتى في العارض من نجد آلات «السطرين» لتسوية الطين ، بل إن العمال يستمضون عن الآلات المعدنية أو الخشبية بأ كفهم) ، ثم تبصص بمعلقة معدنية إلى أن تجف فتظهر مصقولة براقه ، عندئذ تأتي النساء بالبرسيم يفركن به الأرض المطينة بقوة مواظبات على عملهن برهة غير قصيرة ، ثم يجلبن الأصباغ الأخرى من أحمر قان ، أو أرجواني ، أو عنابي ، أو أسود ، أو كحلي ، يخططن بها رسوماً هندسية ، على قدر اجتهادهن في التنظيم ، وإذا بالمكان بهيج بألوانه الزاهية ، جميل بأشكاله ورسومه ، ولكنه غير لطيف الرائحة على من لم يتعوده ، لأن رائحة البرسيم للدهوس تملأ جو الغرفة وتضيق الخناق على ساكنها .

والعمارة بالطبع ليست قائمة على قاعدة هندسية منظمة ، فقد يكون طول الغرفة أكبر من عرضها ، وقد يكون السقف مرتفعاً في جانب أكثر منه في الجانب الآخر ، وقد يكون الجدار مائلاً أو بارزاً أكثر من ميل الجدار الآخر أو بروزه . والأبواب والنوافذ ليست متساوية . والمهم أن هنا بيتاً للسكنى يظل المقيم فيه وبقية البرد والحر وعواصف الطبيعة . وأما الهندسة وجمال الفن فإنهما للآن قائمان على حسب مفهوم أهل هذه البلاد واستساغتهم لها . وحسب هذه البيوت أنها حرز لصاحبها تقيه عدوان أخيه الإنسان ، وتضمن له الدفاع عن نفسه وماله وعياله ، وهذا كل ما يلزم .

تسمى البيوت بالنصور أو الحصون ، وتسمى الخلة وطننا أو قرية ، وقد تسمى باسم معين لها ، ولكنها تعرف باسم ساكنيها ، فيقال قرية آل الحارث وقرية آل منصور وهكذا ، وليست البيوت على السواء من حيث الشكل والبناء ، فقلبيها جامع للأوصاف السابقة ، وكثيرها يؤلف من بيوت واطنة متواضعة ضيقة . ولاحظت أنهم يسمون النافذة « كسترة » . والإقبال يسمونه : التقطيب ، فيقولون : « قطب الكسترة » بمعنى أقل النافذة . ويسمون الموقد : حلالا . والمطبخ : ملهبا . وكثير مثل هذا من الاصطلاحات الخاصة .

يفضل كثيرون مناخ « الخميس » على مناخ « أبها » ، واسكن المزعج في الخميس كثرة الرياح وشدتها ، فإنها تبدأ أطراف النهار ، وتهب هبوباً شديداً من الضحى إلى ما بعد العصر ، وأحياناً تدوم إلى الليل ، وربما كان مناخ الخميس أقرب إلى مناخ الطائف في أواسط الصيف ، ولكن ليلته باردة جداً . وقد سجل مقياس الحرارة درجات مختلفة ، وأصغر درجة بانها أيام إقامتنا فيها كانت يوم ٢٢ شوال سنة ١٣٥٢ (٧ فبراير ١٩٣٤) أربعين درجة فهرنهايت . أما ارتفاع « الخميس » عن سطح البحر فهو ٧٣٠٠ قدم .

٦ - الأسواق الأسبوعية

شهدت يوم السوق في هذه القرية ، وهو كما ذكرت يوم الخميس : فوجدت أن أكثر القرى المجاورة يستعدون له أسبوعياً ، ويحضرون إليه ببضاعتهم من جميع الجهات ، من بلاد قحطان : ربيعة ورُفيدة ، ومن بلاد عسير ، كما أن الشهارنة يحضرونه بانتظام . ويعتقد السوق اعتباراً من ضحى يوم الخميس في برحة متسعة واقعة بين القرية ومركز الخيم . وليس هنالك مخازن أو مبان لوضع البضائع وعرضها فيها ، بل إن الأمر لا يتطلب أكثر من بضعة أعواد تبرز على أبعاد متناسبة وتغطي بقطعة من القلع أو الخيش في خطوط متوازية أو متقابلة ، يجلس أصحابها في ظلها ، فيسطون

بضائهم أمامهم ويمرضونها على المازة . والذي لا يتمكن من نصب خيمة كهذه
يكتفى برقعة من الأرض في العراء يبسط فيها سلحته . وهناك موضعان داخلان
في السوق برغم بعدهما عنه : أحدهما لبيع الحطب والحشيش من برسيم وقصب
وخلافهما ، والآخر لبيع السائمة والماشية .

نعم إن في الخميس بعض الخازن الدائمة للبيع والشراء اليومي ، إلا أن الأهمية
العظمى للسوق الأسبوعي ، نظراً لكثرة العارضين والمشتريين فيه . وقد تجولت
في السوق الأسبوعي ، كما تجولت في السوق الدائمى وسط القرية ، فوجدت أن
الأهمية للأول منهما . وقد شاهدت جميع السلع التي تازم لأهل القرى والبادية
من ما أكل ، أو مشرب ، أو ملبس ، أو أدوات منزلية ، فلاحظت أن حاجات
الطعام والملابس أكثر من غيرها .

ويوم السوق هو يوم العيد الأسبوعي في المنطقة مثلما هو يوم البيع
والشراء ، وهو فرق ذلك يوم المقاضاة والمحكمة ، وإبلاغ إعلانات الحكومة
للناس ، ويوم تأديب المجرمين ، وغير ذلك من الأعمال التي تعرض للناس في معاشهم ،
وعلى الإجمال هو يوم جامع تقضى فيه الحوائج ، وتقضى فيه المنازعات والمشاكل ،
لذلك تجد القبائل كثيرة الاهتمام بأسواقها ، مدافعة عنها ، عاملة جهدها على إبعاد
المشاغبات منها ، وإقصائها عن كل ما يشين سمعة أهلها ، أو يضعف حركتها .
وقد وضعت إحصاء لهذه الأسواق في الجهات الواقعة بين الطائف^(١) والحدود
اليمانية فوجدتها تزيد عن مائة سوق . وهذه أسماء بعض أسواق شهران
وعسير وقحطان وما جاورها مع ذكر مواعيد انعقادها :

(١) الطائف نفسه يسميه أهل المنطقة من بادية ثقيف وسفيان وهذيل «السوق» ، وأما الطائف
في عرفهم فيطلق على المنطقة بكاملها .

يوم انعقاد السوق	القبيلة	اسم السوق
الخميس	شهران	سوق الدرب لابن مشيط
الثلاثاء	عسير	« ثلوث أبها ^(١) »
الاثنين	شهران	« ابن حموض »
السبت	عسير	« بنى رزام من بنى مالك »
الأحد	قحطان	« ابن سالم »
الخميس	»	« عبيدة »
»	»	« رفيدة ابن عامر »
»	عسير	« أم زهران من ربيعة ورفيدة »
الاثنين	قحطان	« الحرجة »
الخميس	وادعة قحطان	« ظهران »
السبت	رجال المع	« صلب »
الخميس	بالأحمر	« الغار بين »
الاثنين	بالأسمر	« آل خريم »
الخميس	بالأحمر	« ابن مطير »
الأحد	رجال المع	« الشمبين »
الخميس	» »	« كسان »

(١) يسمى أهل المملكة العربية السعودية يوم الثلاثاء «الثلوث» ويوم الأربعاء «الربوع» .

٧ - قرى الوادى

ذكرنا فيما تقدم من الفصول أن هذا الوادى الذى أطلقنا عليه فى هذا القسم اسم « وادى خميس مشيط » أو « بيشة ابن مشيط » ينبع من ديرة « آل المسيرة » ، وهم قسم من « رفيدة قحطان » التى أميرها ابن هيف ، فى مكان يقرب جداً من خرابات جرش الوارد ذكرها فى كتب العرب فى أعلى مرتفعات عسير التى يسميها أهلها « السقف » أى الجبال بالقرب من سخن « تمنية » الذى يحسب حداً فاصلاً لتقسيم المياه الغربية والشرقية والجنوبية أيضاً .

أولاً : تقوم على أطراف الوادى حينما يكون فى ديار قبيلة رفيدة^(١) قحطان القرى الآتية :

(١) المصيقي	(٧) آل زهير	(١٣) آل الرميح
(٢) القرحاء	(٨) ليوان	(١٤) الجوف
(٣) عنقرة	(٩) آل الداحى	(١٥) آل شوية
(٤) آل الشيخ	(١٠) آل السواد	(١٦) آل عريضة
(٥) الدر بين	(١١) آل النظبا	(١٧) آل غر
(٦) عراب	(١٢) آل عمرة	(١٨) آل نادر .

ثانياً : وحينما يصل إلى بلاد ابن سالم من عبيدة قحطان تقوم على أطرافه القرى الآتية :

(١) الرمبة	(٦) القضعان	(١١) آل قريش
(٢) آل كنبه	(٧) آل ثابت	(١٢) آل عصبه
(٣) آل جلده	(٨) آل مهدي	(١٣) آل قرعة
(٤) آل ألوف	(٩) آل هبيل	(١٤) آل بسم
(٥) آل جلده من الحف	(١٠) آل جبرة	(١٥) آل سليمان

(١) لأن قرى رفيدة وأقسام بدائها أكثر بكثير مما هو هنا ، ولم أذكر فى هذا البحث إلا ما كان واقعاً على الوادى من القرى وهى قرية « جارحة » و « خطاب » . أما قرى قبائل الحف ووفشة وذبحى والجمل وآل مستنبر فقد تركتها لى فرصة أخرى .

ثالثاً : أما في بلاد شهران فعلى وادى بيشة ابن مشيط القرى الآتية :

- | | |
|------------------------------------|---------------------------------------|
| (١) مسيجل | (١١) العرق |
| (٢) الرونة | (١٢) قنبر ، سكن عبدالوهاب أبو ملححة |
| (٣) نعمان | (١٣) الصمدة |
| (٤) الطرير | (١٤) آل هميلة |
| (٥) الوقبة | (١٥) الفراية |
| (٦) ذهبان سكن الأمير ابن مشيط | (١٦) طيب الاسم (كيسان) |
| (٧) الصنفق | (١٧) معلوم |
| (٨) المثناة | (١٨) أبو سليك ، وهي منتهى الوادى |
| (٩) آل عزيز | (١٩) الجهور ، بينه وبين ابن هشبيل . |
| (١٠) الدرب ، وفيه السوق الأسبوعى | |

رابعاً : وحينما يصل الوادى إلى بلاد ابن هشبيل من بنى بجاد من شهران تقوم

عليه القرى الآتية :

- | | | |
|------------------|---------------|----------------------|
| (١) المعامل | (٤) الشممة | (٧) الفريرة |
| (٢) الرشدة | (٥) آل بطاط | (٨) شفان |
| (٣) آل أبو ثور | (٦) الشقر | (٩) بطنة بنى ثعلبة |

أما الزراعة الرئيسية في هذه القرى فإنها الحبوب (البرّ والشعير والذرة بأنواعها والدخن) . أما الخضر والفاكهة فإن عناية أهل بلاد شهران بها قليلة جداً . والمعيشة من حيث هي بدائية بسيطة ، بحيث إن سكانها يعتمدون في ما كلهم على محصولاتهم الوطنية .

٨ — السفور والزواج

من الأمور الجديرة بإنعام النظر في أهل هذه البلاد سفور نساءها واختلاطهن بالرجال ، ولا فرق بين أن يكون الرجال من الأقارب أبناء البلد أو الغرباء والأجانب ،

ويشترك النساء في أحاديث الرجال في مجالسهم ، مهما كان نوعها ، سواء أكنّ أبكاراً أم ثيبات .

والاختلاط بين الجنسين قد تكون له مبررات بين الأقارب ، وأما بين الأجانب فقد كان من الدواعي التي أهابت بالأمير « سعود » إلى وضع حد له وتحريم اختلاط الجنسين في المجالس أو في السوق .

وأما المهور فإنها رخيصة جداً ، وليس أدل على ذلك من معرفة أن المهر بين أبناء العم لا يتجاوز الخمسة إلى العشرة ريالاً ، وأما بين أبناء القبيلة الواحدة أو بينها وبين القبائل المتصلة بها بصلة النسب فقد يبلغ المهر من عشرين إلى ثلاثين ريالاً . غير أن كثرة الزواج بالجنود أدت إلى رفع المهور إلى مائة ومائتين وأحياناً إلى أربعمائة ريال .

ولا يهتم أهل هذه البلاد بالكفاءة في النسب حقاً إن عائلات الأمراء والأعيان لا تزوّج بناتها لغير الكفاء ، ولكنني شاهدت حوادث كثيرة قد أغفلت فيها شروط النسب والكفاءة ، وكان الاهتمام بالمهر الغالي والزوج الكريم . ويكفي أن يقع نظر الرجل على ابنة حسناء فيأتي إليها في السوق أو على البئر ويحدثها في أمر الزواج . ويمكنه أن يقول لها : « أنا ميدك^(١) » ، فإن كانت راضية عنه تجبه بأنها « ميده » وتدله على والدها أو وليها الذي بيده أمرها ، ويتم الاتفاق سريعاً . وهناك حوادث قد تجيب فيها المرأة طالبها بأنها « ليس ميد » أي لا رغبة لها في الزواج .

والنساء يقمن بأعمال المنزل ، فضلاً عن الاحتطاب وسقاية الماشية ونقل الماء إلى المنزل والبيع في الأسواق . يبعن من حاصلات الحيوان أو الزرع ، بأسطاط سلعهن في الأسواق الأسبوعية . غير أن الأمير « سعود » منعهن من ذلك درءاً للفساد بين أفراد الجند .

(١) « ميد » كلمة لم أعلم أساسها ، وقد تكون محرفة عن « ودي » ويعني بها الرغبة في الأمر وقصد إجرائه .

تضفر النساء شعورهن ، ويسرحن خصلة من الشعر فوق الجبين ويقصصنها ، فتبدو عليهن أشكال ذوات الأزياء الحديثة ، لاسيما عندما يلبسن الثوب الفضفاض الذي يشبه « موضة الكلوش » الطويل بين السيدات المتمدنيات . واسوء الحظ لم أسمع بإتقان النساء للخياطة ، فإن هذه الصناعة مثل كثير غيرها وقف على السادة الرجال . ولذلك فإن ثياب المروس تتباع من المخازن التجارية مفصلة جاهزة أو تعطى الخياط فيصنعاها ويصلحها على هندام المرأة . ويتمنطق النساء بأحزمة من الجلد حول خصورهن ، فيتجلين في لبسهن أوريبيات على الطراز الحديث !

وسأذكر في الفصول المقبلة طرفاً من بعض العادات المتبعة في الأعراس والولائم وزيارة الأصدقاء في « عسير » ، فأقتصر هنا على هذا المقدار .